الباب التاسع

انتشار الإسلام في الهند

تناول كثير من المؤرخين الأقدمين والمعاصرين على سواء، الكلام على غزوات المسلمين في الهند وتأسيس النفوذ الإسلامي ونموه في هذه البلاد. بيد أن أحدًا لم يحاول إلى الآن أن يكتب عن تاريخ انتشار الإسلام في الهند، باعتباره شيئًا منفصلًا عن الانتصارات الحربية والأعمال الإدارية التي قام بها أشياع هذا الدين. وفي الحق أن مثل هذا العمل يجب أن يبدو أمرًا مستحيلًا في نظر كثير من هؤلاء المؤرخين، فطالما كانت الهند البلد المختار الذي يدين بوجود الإسلام فيه، واستمرار ذلك الوجود، إلى استقرار الشعوب الإسلامية الأجنبية الفاتحة الذين نقلوا دينهم إلى ذرياتهم من بعدهم، ولم ينجحوا في نشره فيما وراء بيئتهم إلا عن طريق الاضطهاد والإكراه على التحول إلى هذا الدين. ومن ثم يزعم بعض أن روح الدعوة الإسلامية تعلن عن صورتها الحق فيما أحدثه محمود الغزنوي من مذابح البراهمة الوحشية، وفي اضطهادات أورنج زيب **Aurangzeb**[*]، وفي حمل الناس على الختان، على أيدي حيدر علي، وتيبو سلطان ومن شاكلهما.

على أننا نجد من بين الستة والستين مليونًا[*] من مسلمي الهنود عددًا هائلًا لم يكن للقوة والعنف نصيب في تحويلهم أو في تحويل ذريتهم، بل كان للتعليم والإقناع وحدهما اللذين لجأ إليهما الدعاة المسلمون تأثيره الفعال في هذه السبيل. وإن هذه الطبقة من هؤلاء الذين تحولوا إلى هذا الدين لتؤلف في حد ذاتها جماعة معينة، يمكن أن تتميز عن هذه الجماعة التي تحولت عن طريق الإكراه وعن غيرها من العناصر غير المتجانسة التي يتألف منها مسلمو الهند، ويمكننا أن نقسم هذه الجماعة العامة على وجه التقريب، إلى هؤلاء الذين ينتمون إلى جنس أجنبي، والذين جاءوا بهذا الدين معهم وأدخلوه في البلاد،

(*) اسم أحد ملوكهم ومعناه زينة العرش (أورنج = العرش، زيب = زينة).

(*) أصبح عدد مسلمي الهند اليوم أكبر مما ذكره المؤلف بكثير.

وإلى هؤلاء الذين تحولوا من إحدى الديانات القديمة في البلاد بتأثير بواعث مختلفة وفي عصور متباينة من التاريخ.

وتتألف الجاليات الأجنبية في الهند من طوائف أصلية ثلاث: الأولى – وهي أهمها من حيث العدد – هي طائفة المهاجرين الذين قدموا عبر حدود الهند الشمالية الغربية، والذين نجدهم في إقليمي السند والپنجاب بوجه خاص، والثانية هم بقايا أعضاء الطبقة الأرستقراطية أو جيوش الدول الإسلامية الذين أقاموا بكثرة في أعالي الهند وبدرجة أقل بكثير في هضبة الدكن، والطبقة الثالثة والأخيرة، هم هؤلاء الذين استوطنوا الساحل الغربي؛ ولا يبعد أن يكونوا من أصل عربي، وقد جاء الذين أسسوا هذه المستعمرات إلى بلاد الهند عن طريق البحر[١]. ولكن عدد الأسرات، التي تنتمي إلى أصل أجنبي، والتي استوطنت بلاد الهند فعلًا، ليس كبيرًا في أي مكان إلا في البنجاب وما يجاورها.

وفي الحق أن أكثر من نصف مسلمي الهند قد تلقب بألقاب الشعوب الأجنبية المتميزة، مثل شيخ وبك وخان، بل بلقب سيد، بيد أن السواد الأعظم من هؤلاء المسلمين هم من سكان البلاد الأصليين أو من ذرياتهم الذين تحولوا إلى الإسلام، وتلقبوا بلقب الشخص الذي بلغ أعلى مرتبة بين هؤلاء الذين أسلموا على أيديهم، أو اندمجوا في الطبقة الأرستقراطية الإسلامية، حتى ولو كان صادرًا عن بواعث أقل أهمية من ذلك[٢].

أما هذا القسم الثاني من هذه الجماعة – وهم أهالي البلاد الأصليون الذين تحولوا إلى الإسلام – فإن تغيير دين فريق منهم، كان بعضه راجعًا من غير شك إلى ما استخدم من وسائل العنف وضغط السلطان السرمية، على حين دخل السواد الأعظم منهم في حظيرة الإسلام بمحض إرادتهم إلى حد بعيد. وإن تاريخ الحركات التي قام بها المسلمون لنشر الدعوة الإسلامية، والمؤثرات الاجتماعية التي أدت إلى تحول أهل بلاد الهند إلى الإسلام لم تلق إلى الآن إلا عناية يسيرة جدًا.

---

(١) Census of India, 1891. General Report by J. A. Baines, p. 167. (London, 1893).

(٢) Id. Pp. 126, 207.

وإن معظم الكتب التاريخية التي نستطيع الرجوع إليها، والتي تتناول الكلام على المسلمين في الهند، سواء أكان مؤلفوها من الأوروبيين أم من أهالي هذه البلاد، لا تعدو أن تكون سجلات دونت فيها أخبار الحروب والحملات وما أتاه الأمراء من أعمال، على حين لم يشيروا إلى حياة ذلك العصر، إلا بقدر يسير. فإذا تصدوا لذكر شيء منها، صاغوه في صورة من التعصب وعدم التسامح الديني. على أننا نستطيع من دراسة أولياء المسلمين، ومن التقاليد المحلية، أن ندرك شيئًا من الأعمال التي قام بها دعاة المسلمين في سبيل نشر الدعوة، مستقلين تمام الاستقلال عن الحياة السياسية في البلاد.

ولكن يحسن بنا، قبل أن نتناول الكلام على هذه الأعمال، أن نأتي بنبذة عما ما قامت به السلطات الرسمية من نشر الدعوة إلى الإسلام، وما قام به حكام المسلمين في سبيل نشر عقيدتهم.

بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمسة عشرة سنة، أرسل العرب حملة إلى بلاد السند، وأخذ سيل الغزاة يتدفق على بلاد الهند من ناحية الشمال الغربي، واستمر ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادي، وكان بعض هؤلاء الغزاة من مؤسسي الإمبراطوريات العظيمة، وبعضهم الآخر لم يعد أن يكون قومًا مخاطرين. على حين أتى بعض بقصد السلب والنهب، وعادوا محملين بالغنائم والأسلاب، وبقي بعض آخر يؤسسون ممالك ظل أثرها إلى اليوم، ولكنا لا نعرف عن هؤلاء، إذا كانوا قد استصحبوا معهم أية بعوث أو دعاة لنشر الدعوة. ولكن ذلك لم يكن راجعًا إلى عدم اكتراثهم لدينهم. وقد ظهر لكثير منهم أن غزوتهم بلاد الهند اصطبغت بصبغة الجهاد الديني، وأن مثل هذه الفكرة قد تجلت في ذهن كل من محمود الغزنوي وتيمور، وقد دون هذا الأخير فيما دونه عن نفسه بعد أن استولى على دهلي: «لقد قضيت خمسة عشر يومًا في دهلي، بين مظاهر الفرح والنعيم، أعقد مجالس البلاط الملكية، وأقيم الأسمطة العظيمة؛ ثم ذكرت أنني أتيت إلى هندستان لشن الحرب على الكفار. وقد بارك الله هذه الحملة، فجعل النصر حليفي والظفر يتبعني أنى ذهبت، ولقد انتصرت على خصومي، وقتلت بعض مئات الألوف من الكفار وعبدة الأصنام، ولطخت سيف الدعوة بدماء أعداء الدين. الآن وقد تم لي هذا

النصر المبين، أشعر أنه لا يحق لي أن أخلد إلى الراحة، بل أن أبذل جهدي لشن الحرب على كفار هندستان"[١].

ومع أن تيمور يتحدث كثيرًا عن سيفه الذي استعان به في نشر الدعوة، يظهر أنه لم يتذرع بأية وسيلة أخرى أكثر مما فعله بإرسال الكفار إلى الجحيم، ويبدو أن معظم غزاة المسلمين قد سلكوا سبيلًا تشبه تمامًا هذه السبيل، فباسم الله حطمت الأصنام وقتل سدنتها، وهدمت معابدها، وبنيت مكانها مساجد في أغلب الأحيان. وفي الحق أن الإسلام قد عرض في الغالب على الكفار من الهندوس قبل أن يفاجئهم المسلمون بالقتال[٢]. وقد أملت الرهبة في بعض الأحيان على الناس أن يقبلوا إلى حين ما عرض عليهم الدخول في الإسلام، وأدت إلى حالات تحول إلى هذا الدين، تلك الحالات التي كانت قصيرة الأمد في الغالب على الأقل في الأيام الأولى من الفتح الإسلامي، ثم لم تصبح ذات تأثير بعد انسحاب الفاتحين.

ومما يوضح لنا هذه الحالة قصة هردته **Hardatta** أحد ملوك[*] بُلندشهر **Bulandshahr**، فقد سرد لنا كاتب محمود الغزنوي كيف خضع له هردات، وذلك فيما كتبه هذا الكاتب عن تاريخ حملات محمود، قال: «وأخيرًا (حول سنة ١٠١٩م) (٤١٠هـ) وصل (محمود) إلى حصن باربا[٣] في بلاد هردات، وهو أحد رائيس **rà'is** ومعناها «ملوك» في اللغة الهندية. ولما سمع هردات عن هذه الغزوة التي قام بها جنود الله المحميون الذين تدفقوا كأمواج البحر، تحيط بهم الملائكة من كل جانب، أخذ منه الغضب كل ما أخذ، وارتعدت فرائصه، وخشي أن يخسر حياته بوقوعها تحت طائلة شريعة الله، لهذا رأى أن خير سبيل لنجاته أن يوافق على اعتقاد دين الإسلام، ما دام سيف الله قد جرد من غمده وسوط العذاب قد رفع. لهذا تقدم مع عشرة آلاف رجل، وأعلنوا

---

(١) **Elliot, vol. ii. P. 448.**

(٢) دعا محمد بن القاسم أمراء الهنود إلى اعتقاد الإسلام؛ ولا يبعد أن يكون الغزاة الذين جاءوا بعده قد عملوا مثله على تنفيذ مبادئ الدين **(Elliot, vol. i. pp. 175, 207)**.

(*) كلمة هندية معناها المدينة العالية.

(٣) أو بران وهو اسم بولاندشهر القديم.

برغبتهم في التحول إلى الإسلام ونبذهم عبادة الأصنام»[١].

ولا يبعد أن يكون هؤلاء الذين دخلوا حديثًا في الإسلام قد اغتنموا أول فرصة للارتداد عندما عرض عليهم ذلك إثر انسحاب الفاتحين، وهي ظاهرة نجد من تقدم من مؤرخي الهند المسلمين يوالون الشكوى منها. ذلك أنه عندما أغار قطب الدين أيبك على بران في سنة ١١٩٣م، تصدى له في عنف شندرزان، الذي كان راجا في ذلك الحين، والذي كان ينحدر من بيت هردات، وكان مجرد اسمه يدل على عقيدته الهندية. ولم نعد نسمع بعد ذلك عن وجود مسلمين تحت حكمه [١].

ولكن يظهر أن هؤلاء الفاتحين كان لديهم شيء يسير جدًا مما نسميه «حب النفوس»، الذي يدفع الدعاة المخلصين إلى نشر الإسلام، والذي أتم مثل هذه الغزوات العظيمة في سبيل الإسلام. فقد بلغ من اشتغال أسرة الخلجيين Khiljis التي حكمت من سنة ١٢٩٠ إلى سنة ١٣٢٠م، وأسرة تغلق Tughlaqs التي حكمت من سنة ١٣٢٠ إلى سنة ١٤١٢م، وأسرة اللوديين التي حكمت من سنة ١٤٥١ إلى سنة ١٢٥٦م، بالحروب، أنهم لم يستطيعوا في الغالب أن يحفلوا بالأغراض الدينية، وأنهم قد فكروا في فرض الضرائب واشتطاطهم فيها، أكثر من تفكيرهم في نشر الدعوة [٢].

ولكن الحماسة الدينية لم تنقصهم نقصا تاما؛ فقد قيل إن الجكهر Ghakkars

---

[١] Elliot, vol. ii. Pp. 42-3.

[١] Gazetteer of the N.W .P ., vol. iii. Part ii. P. 85.

[٢] لم يعلن الرواد الحربيون الذين أسسوا دولًا في شمال الهند، وأقاموا لهم ممالك في هضبة الدكن عناية تذكر بالمسائل الروحية؛ فلم يكن لدى معظمهم في الواقع أي وقت لنشر تعاليم الدعوة، إذ كانوا منشغلين دائمًا بالفتح أو الحروب الأهلية. وكانوا في الغالب من سوقة التتر أو المغول، ولم يكن دين محمَّد قد تمكن من نفوسهم، كما أنهم لم يتأثروا بحماسة الأجناس السامية الصادقة التي دفعت أو لم يرفعوا أول لواء عربي في الإسلام. فقد كانت الإمبراطورية التي أسسوها ذات صيغة حربية خالصة. وظلت هذه الإمبراطورية على هذه الحالة بتأثير من أحرزوه في فتوحهم من بعض النجاح وما منوا به من خيبة بالنسبة إلى غيرهم في غزواتهم الروحية وكان لديهم من القوة ما يجعلهم يحولون دون أي شيء يشبه الاندماج الديني بين الهندوس، أو دون جمع القبائل وجعلها أمةً. ولكنهم كانوا أبعد ما يكونون عن تحويل الهند إلى الإسلام، حتى إن دينهم لم يحصل على احتكار المناصب الإدارية العالية بصفة كاملة نهائية، بين المسلمين أنفسهم ،،. (Sir Alfred C. Lyall; Asiatic Studies, p. 289) (London, 1882.)

مثلا، وهم شعب متبربر كان يسكن المقاطعات الجبلية شمالي البنجاب، وكانوا قد أثاروا متاعب جمة للغزاة الأولين، قد تحولوا إلى الإسلام بتأثير محمود الغوري في نهاية القرن الثاني عشر، وقد أسر الملك المسلم زعيمهم وحثه على اعتقاد الإسلام، وبعد أن أقره زعامته على هذه القبيلة، أعاده لتحويل أتباعه إلى هذا الدين. ولما كان كثير منهم ذوي إلمام يسير بدينهم القديم، كان من السهل أن يسود فيهم الإسلام [٣].

وقد شجع الخلجيون – كما يقول ابن بطوطة – على تحويل الناس إلى الإسلام، وسنوا عادة تقديم الشخص الذي دخل حديثا في الإسلام إلى السلطان، الذي كان يكسوه كسوة حسنة، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره [٤]. ولكن الحكام في عهد الأسرات الإسلامية الأولى لم تكن لديهم الحماسة الكافية لنشر تعاليم الإسلام. ومن الصعب أن نجد في تاريخهم ما يشبه هذه العبارة التي دونها فيروز شاه تقلق (١٣٥١–١٣٨٨م) فيما كتبه عن تاريخ حياته قال:

«لقد شجعت رعاياي الكفار على اعتقاد دين النبي، وأعلنت لهم أن كل شخص يردد هذه العقيدة ويصبح مسلمًا، يعفى من الجزية أو ضريبة الرأس".

ولما اتصل هذا النبأ بمسامع الناس، تقدم الهندوس زرافات ووحدانا، وسمح لهم بأن ينالوا شرف الإسلام؛ ومن ثم أخذوا ينثالون من كل حدب وصوب. ولما اعتقدوا الإسلام، أعفوا من الجزية، ومنحوا الهدايا، ومظاهر التكريم [٥].

ولما توطد النفوذ الإسلامي، وخاصة في عهد أسرة المغول، أصبح نفوذ الإسلام الديني بطبيعة الحال أكثر ثباتًا واستمرارًا. حقًا إن هذه المؤثرات لتتجلى في الحركات الهندوكية التي تقول بوجود الله، والتي ظهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد زعم الأسقف لفروي Lefroy أن طابع تعاليم الإسلام الواقعية قد جذب عقولًا لم

---

[٣] Firishtah, vol. i. p. 184.

[٤] ابن بطوطة جـ ٣ ص١٩٧.

[٥] Elliot, vol. iii. P. 386.

تقتنع بنظام الفكرة الحلولية [†] التي تتميز بالغموض والنسبية [§].

«لما اصطدم الإسلام، مع ما عرف عنه من تمثيل قوي لحقيقة وجود الله وتلك الحقيقة التي انبعثت منا، وهي طابع الحق الذي يتميز بالثبات المطلق والمحسوسية البحتة – اصطدم بعقيدة الحلول التي تقوم على الغموض، وبما قامت عليه هذه العقيدة من نسبية، تبع ذلك بالضرورة أن الإسلام لم ينتصر في هذه المعركة فحسب، بل لقد غدا البلسم الشافي الذي سرى في شريان الحياة والفكر في بلاد الهند العليا. وسرعان ما أحيا عقولًا كثيرة وبث فيها حياة أكثر قوة ونشاطًا، تلك العقول التي لم تقبل من تلقاء ذاتها أن تتأثر بمثل هذا التأثير الفكري» [٦].

وقد ظهر عامل قوي من عوامل التحول إلى الإسلام، عند ما وقف اعتقاد الناس للديانة الوثنية عقبة دون التقدم بين رجال البلاط عند المسلمين، ومع أن روح التسامح التي بلغت ذروتها تحت حكم «أكبر» الذي كان يدين بالفلسفة الانتقائية [††]، طالما ملأت الديانة الهندوكية، بل احترمت الأوقاف الحكومية الخاصة بهذه الديانة في أغلب الأحيان [٧].

ومع أن خوف أكبر من عدم تأييد الجمهور له ورغبته في معالجتهم، قد أملى عليه سياسة عدم التدخل، وأنكر أمثال هذه الأعمال العنيفة، وثورات التعصب الديني، التي كانت قد ميزت فترة الفتح والانتصار الأولى.. مع هذا كله، جذبت أمثال هذه البواعث التي أملتها المنفعة الذاتية كثيرين من الذين تحولوا من الديانة الهندوكية إلى العقيدة الإسلامية، ولقد تحول كثير من أفراد القبائل الهندية Rajputs بهذه الطريقة، ولا تزال سلالتهم إلى اليوم بين الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأراضي. وربما كان أهم هؤلاء ذلك

[†] مذهب وحدة الوجود **Pantheism** مذهب فلسفي يقول أنصاره أن الله والكون واحد، أي أن الله حال في كل شيء وفي كل جزء منه متحدًا به حتى يجوز أن يطلق الله على كل شيء.

[§] النسبية أي المذهب الذي يقول إن المعرفة البشرية شخصية بحتة.

[٦] **Mankind and the Church, p. 286. (London, 1907.)**

[††] يراد بهذه الفلسفة مذهب فرقة إغريقية ظهرت في القرنين الثاني والأوائل قبل الميلاد، وتقول بعدم الانحياز لحزب ما، بل باختيار الحسن من كل الأحزاب.

[٧] **Sir Richard Temple: India in 1880. P. 164. (London, 1881.) Punjab States Gaztteers, vol. xxxvi. A. Bahawalpur, p. 183.**

الفرع الإسلامي الذي ينتمي إلى عشيرة بشجوتي Bachgoti، وعلى رأسها شريف أوده Oudh الزعيم المسلم الأول؛ فقد روي في إحدى أساطيرهم أن الإمبراطور «بابر» أسر تيلك تشند Tilok Chand، الذي دان بالإسلام ليسترد حريته. على ان أسطورة أخرى ترجع تحوله إلى الإسلام إلى عهد همايون Humàyùn. ذلك أن الأمير لما سمع بجمال زوجة تيلك تشند الفاتن، أمر رجاله فقادوها إليه من أحد الأسواق. ولكن سرعان ما أنبه ضميره وردوها إلى زوجها. وكان تيلك تسند قد استولى عليه اليأس، واعتقد أنه لن يراها أبدًا، واعترافها بهذا الجميل، اعتقد هو وزوجته الإسلام «الذي يلقن الناس مثل هذه العفة التي تنطوي على كرم الأخلاق» [٨].

ويبدي أفراد القبائل الذين تحولوا إلى الإسلام حماسة بالغة، وكثيرًا ما نراهم يقاومون شعائر دينهم القديم بطريقة تثير الدهشة. وفي مقاطعة بلندشهر Bulandshahr مثلًا نرى أسرة مسلمة كبيرة تشتهر باسم لالخاني پتهان Làlkhàni Pathàna لا تزال تحتفظ (مع استثناءات قليلة) بألقابها الهندية القديمة، وعادات أسراتها في الزواج، على حين لا تزال هنالك فروع هندية من نفس هذه العشيرة تقيم معها إلى الآن جنبًا إلى جنب [٩]. وفي مقاطعة مرزابور Mirzapur لا يزال أفراد قبيلة جُهروار Gaharwàr؛ الذين يدينون الآن بالإسلام، يحتفظون بنظمها وعاداتها وتقاليدها الهندوكية القديمة، ويصدرون أسماءهم الإسلامية بألقاب الشرف الهندوكية [١٠].

وقد قيل إن الضغط الحكومي لم يكن قط أشد على الهندوس منه في عهد أورنج

---

[٨] Gazetteer of the province of Oudh, vol. i. p. 466.

[٩] Gazetteer of the N.W.P., vol. iii. Part ii. P. 46.

[١٠] Gazetteer of the N.W.P., vol. xiv. Part ii. P. 119.

في مقاطعة كونبور Cawnpore يحتفظ الفرع الإسلامي من أسرة دخيت Dikhit بالعادات الإسلامية في الولادة والزواج والوفاة. ومع أنهم لا يستطيعون تلاوة الصلاة المسماة نماز Namaz عادة، فإنهم يقيمون طقوسهم النسبية بالسجود. ولكنهم يعبدون جيجك ديوي Chachak Devi (إلهة الجدري والحصبة) في الوقت نفسه ليدرءوا عنهم مرض الجدري، ويحتفظوا بأواصر الصداقة مع أخواتهم الذين ينتمون إلى نفس طبقتهم القديمة، وهم الثكور Thakurs في الحوادث العائلية، ويسمون عادة بأسماء هندية شائعة.

(Gazetteer of the N.W.P., vol. vi p. 64.)

زيب Aurangzeb. وفي مقاطعات البنجاب الشرقية نجد حالات كثيرة يقال فيها إن جد العشيرة الإسلامية التي تتكون من جماعة هذه القرية قد غير دينه في عهد هذا المتعصب «لكي يخلص أرض القرية». وفي مدينة جرجاون Gurgaon القريبة من دلهي، نجد أسرة هندية تنتمي إلى بنياس Bunyas الذي لا يحمل لقب شيخ (الذي انتحله عادة الهندوس الذين تحولوا إلى الإسلام)، لأن أحد أفراد هذه الأسرة، الذي انمحى نسبه الآن، قد تحول إلى الإسلام ليخلص أملاك أسرته من المصادرة [١١]. وأرغم كثيرًا من أفراد القبائل من ملاك الأراضي في مقاطعة كونپور على الدخول في الإسلام لهذا السبب نفسه [١٢]. وقد قيل في بعض حالات أخرى أن هذا الجد قد سيق أسيرًا أو رهينة إلى دلهي، حيث أرغم على الختان والتحول إلى الإسلام [١٣]. وينبغي أن نلاحظ أن مصدر هذا التحول الذي تم عن طريق الإكراه إنما هو وليد أسطورة قبلية أو محلية.

وليس هناك إشارة (بقدر ما أمكنني الوصول إليه) إلى ذلك في العبارات التاريخية الخاصة بحكم أورنج زيب [١٤]. ومما لا مشاحة فيه أن حكام المسلمين قد حولوا الناس إلى الإسلام بالقوة؛ ويبدو أنه من المحتمل أن ما اتصف به أورنج زيب من غيرة معروفة على عقيدته الدينية قد حمل كثيرًا من الأسرات الإسلامية في شمال الهند (التي نسي تاريخ تحولهم) على أن تنسب تبديل عقيدتهم إلى هذه الغيرة، وهذا السبب أقرب الأسباب احتمالًا.

وشبيه بهذا ما نراه في هضبة الدكن، حيث شارك أورانج زيب، حيدر علي وتيپو سلطان Tipu Sultán (وهم أشهر حكام المسلمين في العصر الحديث)، فيما شاع من

---

[١١] Ibbetson, p. 163.

[١٢] Gazetteer of the N.W.P., vol. vi p. 64.

قارن أيضًا ما ورد في نفس هذا المصدر vol. xiv. Part. Iii. P. 47. «إن الزراع المسلمين لم يكن عددهم كبيرًا، وهم الآن مسلمون دخلوا حديثًا في الإسلام. ويرجع معظمهم تاريخ تحولهم ال حكم أورنج زيب، ويصفونه بأنه كان أحيانًا نتيجة للاضطهاد، وأحيانًا أخرى وسيلة لتمكينهم من الاحتفاظ بحقوقهم إذا عجزوا عن أداء الخراج».

[١٣] Ibbetson, p. 163.

[١٤] حقًا قال فرشته Firishtah في وضوح: «ولقد بلغ من تحمسه لعقيدة محمد أنه كان كافأ الذين تحولوا إلى الإسلام بالإغداق عليهم، ولو أنه لم يؤثر عنه أنه كان يضطهد هؤلاء الذين يدينون بعقائد أخرى في الأمور الدينية».
(The History of Hindostan, translated from the Persian by Alexander Dow, vol. iii. P. 361.) (London, 1812.)

إكراه أسرات مختلفة وطوائف من الأهلين، الذي يبدأ تحولهم إلى الإسلام بلا ريب إلى عهد أقدم من هذا بكثير، حيث لم يصل إلينا أيه إشارة تاريخية عن الحوادث التي اكتنفت هذه المسألة [١٥].

ولعل تيبو سلطان هو الحاكم المسلم الذي أخذ على نفسه مهمة تحويل الناس إلى الإسلام بالإكراه؛ ففي سنة ١٧٨٨م أذاع المنشور التالي على أهالي مليبار:

«بعد انقضاء أربع وعشرين سنة على غزو بلادكم، لا تزالون على عصيناكم وتمردكم، ولا زلتم مصدر القلق والاضطراب. وفي الحروب التي نشبت في خلال فصلكم الممطر، كنتم أنتم السبب في استشهاد كثير من جندنا. وليكن هذا، فإن ما فات مات. وإني مستعد لأن أتناسى الماضي. وقد حان الوقت الذي يجب أن تعدلوا عن خطتكم، وتلزموا السكينة والهدوء، وتؤدوا ما عليكم من الضرائب كما يفعل الرعايا الأخيار. وما دامت المرأة فيكم لا تقنع برجل واحد، بل تعاشر عشرة رجال، وما دمتم تذرون أمهاتكم وأخواتكم ينغمسن في حمأة الرذيلة، فإن جميع الناس يولدون من سفاح، وما دمتم في علاقاتكم أكثر قحة من الوحوش الضارية، لذلك أرى لزامًا عليّ أن أنهاكم عن هذه العادات الأثيمة، وأنصح لكم أن تكونوا كسائر البشر. وإذا عصيتم وخالفتم عن نصحي، فقد أقسمت قسمًا حقًا غير حانث فيه ولا آثم، أن أحملكم على الصراط المستقيم، وأن أنيلكم شرف الإسلام أجمعين، وأن أسوق جميع عظائمكم كبيركم وصغيركم إلى مقر حكومتي».

وقد أشعل هذا المنشور نار الثورة في مليبار؛ ففي مستهل سنة ١٧٨٩ أعد تيبو سلطان جيشًا جرارًا يتألف من عشرين ألف مقاتل لتنفيذ هذا المنشور بالقوة، وأصدر أوامر عامة بأن «كل شخص في هذه المقاطعة يجب أن يتشرف بالدخول إلى الإسلام من غير تميز. وأن دُور الذين يفرون تخلصًا من هذا الشرف، يجب أن تحرق، وأن يقتفي أثرهم حتى يصلوا إلى مكامنهم، كما يجب أن تستخدم كافة وسائل الصدق والنفاق، والقوة أو الخداع، في حملهم جميعًا على تغيير دينهم. وعلى أثر ذلك اختتن آلاف من الهندوكيين،

---

[١٥] The Bombay Gazetteer, vol. xxii. P. 222. Vol. xxiii. P. 282.

وحملوا على أن يأكلوا لحم البقر. على أن الجيوش الإنجليزية لم تلبث أن قضت على ما بقي من قوة تيبو سلطان في أواخر سنة ١٧٩٠م، ولقي هذا الحاكم حتفه في مستهل سنة ١٧٩٩ باستيلاء الإنجليز على سرينجاپتم Seringapatem (†) وأنكر معظم البراهمة والنيار Nayars الدين الإسلامي ورفضوه، وعادوا إلى دينهم القديم (١٦).

ويمكن أن نحكم على مبلغ ضآلة تأثير انتشار الإسلام بالإكراه من جانب الحكام المسلمين من هذه الحقيقة وهي أنه حتى في المراكز التي يسود فيها النفوذ الإسلامي، مثل دلهي وأجرا، لا يكاد يعدو عدد المسلمين في العصور الحديثة على العشرة في المائة من سكان الإقليم الأول، على حين أن عدد المسلمين في الإقليم الثاني لا يكاد يبلغ ربع السكان (١٧). وهناك مثل بارز نسوقه على عدم أهمية تحويل الناس إلى الإسلام عن طريق الإكراه. ويتجلى هذا المثل في حالة بوده مَلْ Bodh Mal راجا مجهولي Raja Majhauli في مقاطعة جوركه پور Gorakhpur. فقد قبض عليه «أكبر» بسبب اختلاسه أموال الخراج، وحمل إلى دلهي حيث تحول إلى الإسلام وتسمى باسم مُحَمَّد سليم. على أنه لما عاد، رفضت زوجته أن تسمح له بالدخول إلى قلعة أجدادها، ولما جذبت عطف رعيته إلى جانبها على ما يظهر، حكمت بلاده في الوقت الذي كان ابنه بهواني مال Bhawani Mal قاصرًا؛ وبذلك ظل الحكم في هذا البيت دون أن يتعرض له أحد من غير أفراده (١٨).

وقد بقي إلى الآن بعض مخلفات عجيبة تدل على تفاهة تحول الناس إلى الإسلام بطريقة مماثلة، نلاحظها في بعض طقوس الطائفة الهندوكية التي يطلق عليها اسم بشنوئي Bishnois ومن شعائرهم الرئيسية إنكار جميع آلهتهم الهندوكية عدا وشنو Visnu. وقد اعتادوا حديثًا أن يدفنوا موتاهم بدل إحراقهم بالنار، واتخذوا اسم «غلام مُحَمَّد» وغيره من الأسماء الإسلامية، واستعملوا الصيغة التي يستعملها المسلمون في الإسلام وقد فسروا

(†) تقع ولاية ميسور جنوبي الهند، وقد أسسها حيدر علي في القرن الثامن عشر.

(١٦) Innes, pp. 72-3, 190

(١٧) Sir W. W. Hunter: The Religion of India (The Times, February 25th 1888.)

(١٨) Gazetteer of the N. W. P. vol. vi. p. 518.

انتحالهم هذه العادات الإسلامية بقولهم أنهم ذبحوا مرة قاضيًا كان قد تدخل في طقوسهم الخاصة بإحراق الأرامل، فكفروا عن خطيئتهم باعتقادهم الإسلام. على أنهم قد رفضوا الآن إقامة هذه الشعائر مراعاة للعادات الهندوكية [١٩].

على أن بعض حكام المسلمين لم يكونوا، على الرغم من ذلك، أكثر نجاحًا في إكراه بعض رعاياهم من الهندوكيين على قبول الإسلام، مما كانوا عليه في الحالات التي ذكرناها آنفًا؛ ومهما يكن مبلغ الصدق فيه زعمه بعض الباحثين من أنه [٢٠] «من المحال أن ندنو حتى من الجانب الديني الخاص بموقف المسلمين في الهند، من غير أن نتمثل مظهره السياسي أولًا» فإننا نجد بلا ريب أن الإسلام قد أحرز أعظم انتصاراته وأطولها بقاء في نشر الدعوة في الأزمان والأماكن التي كانت فيها قوته السياسية أشد ما تكون ضعفًا، كما كانت الحال في جنوب الهند وفي شرق البنغال. ولا بأس من أن نعرض هنا لبعض أمثال حركات الدعوة، مبتدئين بجنوب الهند وهضبة الدكن، وبعد أن نعرض للكلام على تاريخ السند والكتش Cutch وجوجرات، ننتقل إلى البنغال، وأخيرًا نشير إلى بعض ما قام به الدعاة في خارج نطاق هذه الحدود الجغرافية التي تقدم ذكرها. أما هؤلاء الدعاة الكثيرون، فلم يدوّن المؤرخون عنهم إلا أخبارًا قليلة، اللهم إلا ما ذكروه عن أسمائهم ومجال أعمالهم؛ ومن ثم لا نجد في متناول أيدينا تفاصيل في هذا الصدد نظرًا إلى ندرة أمثال هذه الأخبار الخاصة بالدعوة بوجه عام.

ويرجع دخول الإسلام في جنوب الهند لأول مرة إلى القرن الثامن الميلادي، حين قدم جماعة من اللاجئين من العراق – وكانوا يرجعون منشأهم إلى الماپلا Mappillas – واستقروا في هذه البلاد [٢١]. وكان العرب والفرس يزالون تجارة التوابل والعاج والأحجار الكريمة وغيرها بين الهند وأوربا مئات كثيرة من السنين. وقد أدى ذلك إلى توالي تدفق النفوذ الإسلامي على الساحل الغربي من بلاد الهند الجنوبية.

---

[١٩] Gazetteer of the N. W. P. vol. part i. pp. 302-3

[٢٠] Sir Alfred C. Lyall: Asiatic Studies, p. 236.

[٢١] نجد على مقبرة من مقابر Pantalàyini Kollam نقشا يحمل تاريخ ١٦٦هـ (Innes, p. 436.)

وكان من أثر تدفق الأجانب المستمر على هذا الإقليم أن نشأ خليط من السكان يتألف بعض منه من الدم الهندي، وبعض آخر من الدم العربي أو الفارسي، وذلك في مراكز التجارة الواقعة على طول الساحل. ويبدو أن علاقات ودية وطيدة نشأت بين هؤلاء التجار المسلمين والحكام الهنود الذين بسطوا لهم حمايتهم ومدوا لهم يد المؤازرة والمعاضدة، نظرًا إلى نشاط الحركة التجارية المتزايد، وما تبع ذلك من رخاء البلاد الذي كان نتيجة لبقاء هؤلاء التجار فيها [٢٢].

ولم تقف عقبات في سبيل نشر تعاليم الدعوة، ولقي الذين دخلوا في الإسلام من أهالي هذه البلاد الاحترام والتقدير اللذين لقيهما التجار الغرباء، مع أنهم كانوا قبل إسلامهم ينتمون إلى أحط طبقة في المجتمع [٢٣].

وتصور الأخبار المنقولة عن دخول الإسلام في مليبار، كما أوردها مؤرخ مسلم عاش في القرن السادس عشر الميلادي، أن أسبق الدعاة كانوا جماعة من الحجاج في طريقهم لزيارة أثر قدم آدم في سيلان. فلما وصلوا إلى جرنجاور Cranganore بعث الراجة في طلبهم، ووجد الشيخ شرف بن مالك، زعيم هذه الجماعة، وكان صحبة أخيه مالك بن دينار، وابن أخيه مالك بن حبيب، الفرصة سانحة لأن يبسطوا له عقيدة الإسلام ورسالة مُحَمَّد، فأدخل الله سبحانه في قلبه صدق النبي – ﷺ – فآمن به، ودخل في قلبه حب النبي – ﷺ – وأمر الشيخ بأن يرجع هو وأصحابه إليه بعد زيارة قدم آدم عليه السلام [٢٤].

ولما عاد الحجاج من سيلان رحل الملك معهم خفية في سفينة كانت على أهبة الرحيل إلى ساحل بلاد العرب، تاركًا مملكته في أيدي نوابه، وهنا بقي وقتًا ما، ولما أوشك أن يعود إلى بلاده، معتزمًا بناء المساجد ونشر عقيدة الإسلام فيها، انتابه المرض ومات. وقد أوصى رفاقه وهو على فراش الموت، وشدد في الوصية، ألا يعدلوا عن رحلتهم التي

---

[٢٢] زين الدين ص ٣٤–٣٥.

[٢٣] المصدر نفسه ص٣٦. (م–٢٩)

[٢٤] زين الدين ص٢١.

أزعموا إلى القيام بها إلى مليبار لنشر الدعوة، وأن يساعدوهم على أداء مهمتهم، وأعطاهم كتبًا إلى نوابه يوصيهم فيها بهم خيرًا، وأمر رفاقه في الوقت نفيه أن يكتموا حقيقة موته. ولما تسلح شرف بن مالك ورفاقه بهذه الكتب أبحروا إلى جرنجانور، حيث أتاحت لهم رسالة الملك حفاوة كريمة ومنحة من الأرض عمروا عليها مسجدًا. وقد عزم مالك بن دينار على الاستقرار في هذه البقعة، ولكن مالك بن حبيب سافر في رحلة ترمي إلى نشر الدعوة الإسلامية وبناء مساجد في كافة أرجاء مليبار. «فخرج مالك بن حبيب إلى «كولم» بماله وزوجته وبعض أولاده، وعمر بها مسجدًا ثم خرج منها بعد ما خلى زوجته فيها إلى هيلي ماراوى [٢٥] وعمر بها مسجدًا».

وكذا تستمر القصة، فتورد سبعة أماكن أخرى بنى هذا الداعي فيها مساجد، ثم عاد أخيرًا إلى جرنجانور. وقد زار كل هذه الأماكن أخيرًا للمرة الثانية ليؤدي الصلاة في كل منها، ورجع إلى وطنه «شاكرًا الله وحامدًا له بظهور دين الإسلام في أرضه ممتلئة كفرًا [٢٦]». وليس هناك دليل على صحة هذه الرواية من الناحية التاريخية، على الرغم مما تتصف به من الإسهاب، ويضع الاعتقاد السائد في تاريخ وقوع هذه الحوادث المدونة إلى الزمن الذي عاش فيه النبي. وقد ظن زين الدين في شيء قليل من الشك أن هذه الحوادث إنما وقعت بعد المائتين من الهجرة النبوية [٢٧]. الشائعة ليس هناك ما يؤيد ترجيح أحد هذين التاريخين على الآخر، أو ما يؤيد رواية الماپلا الشائعة الخاصة بوجود قبر أحد ملوك الهندوكيين في ظفار على ساحل بلاد العرب، وقد نقش عليه «عبد الرحمن السامري، قدم سنة ٢١٢هـ، وتوفى سنة ٢١٦»[٢٨]. كما يحمل المسجد الذي بني في مدابي، والذي قيل إن الذي بناه هو مالك بن دينار، نقشا تذكاريا لبنائه في سنة ١١٢٤م [٢٩]. على أن الأسطورة تحمل في الواقع الدليل على طابع المسألة الذي اتسمت به

---

[٢٥] هي مدينة دابي الحديثة.

[٢٦] زين الدين ص ٢٣–٢٤.

[٢٧] المصدر نفسه ص٢٥؟

[٢٨] Innes, p. 41.

[٢٩] Id,. p. 398.

مؤثرات نشر تعاليم الدعوة التي كانت قائمة على ساحل مليبار قرونًا عدة. وكان الأفراد الذين اتخذوا تعليم الدين حرفة، وقد جاءوا من بلاد العرب وغيرها، وقد قابلهم في مدن شتى على ساحل مليبار [٣٠]. وقد قيل إن زامورن، وكان أحد كبار أنصار التجارة العربية في قليقوط، شجع دخول الناس في الإسلام، ليجز السفن العربية التي اعتمد عليها في أعلاه مكانته، كما قيل إنه أمر بأن يكون في كل أسرة من صيادي السمك في بلاده فرد أو أكثر من الذكور ينشئون تنشئة إسلامية [٣١].

وفي مستهل القرن السادس عشر قدر عدد أهالي الماپلا بأنهم كانوا يؤلفون خمس سكان مليبار، وأنهم كانوا يتكلمون بلغة الهندوكيين، ولم يتميزوا عنهم إلا بلحاهم الطويلة ولباس رأسهم الخاص. ولكن حين قدم البرتغاليون، كان من الممكن أن يدخل جميع أهالي هذا الساحل في الإسلام. بسبب ما حدث من كثرة تحول الناس إلى الإسلام، وما كان لتجار المسلمين الذين جاءوا من سائر جهات الهند مثل جوچرات والدكن، ومن بلاد العرب وفارس، من نفوذ قوي [٣٢].

ولكن يظهر أنه ليس هناك خبر مدون عن الأفراد الذين قاموا بنصيب في نشر الدعوة، اللهم إلا ما ذكره المؤرخ عبد الرزّاق، الذي ترك لنا وصفًا التي لم تصادف نجاحًا في بلاط زامورن ملك قليقوط. فقد أرسله الشاه روخ بهادر أحد ملوك الأسرة التيمورية في هذه السفارة سنة ١٤٤١، تلبية لنداء أحد السفراء، وكان قد أرسله زامورن ملك قليقوط إلى هذا الملك. وكان السفير نفسه مسلمًا، قد صور للسلطان أن إرسال رساله

---

[٣٠] ابن بطوطة جـ ٤ ص٨٢، ٨٨ وغيرها.

[٣١] Innes, p. 190.

[٣٢] Oboards Barbosa. P. 310.

وكذلك زعم أن سيلان لم تصبح مملكة إسلامية إلا بعد قدوم البرتغاليين. ذلك أنه قبل أن تظهر قوات البرتغاليين في البحار الهندية، كان تجار العرب سادة التجارة في هذه الجزيرة بلا منازع (حيث كانوا في الواقع قد كونوا مستعمرات تجارية قبل مولد النبي بقرون)، كما كانوا يوجدون في كل ميناء ومدينة، بينما جذبت سهولة التجارة جماعات كبيرة من وفود جديدة جاءت من مستعمراتهم في مليبار. وهنا صنع تجار العرب كانوا يصنعونه في أي مكان، فتصاهروا إلى أهالي هذه البلاد، ونشروا دينهم على طول الساحل. ولكن يظهر أنه لم تقم هناك حركة فعالة صحيحة لنشر تعاليم الدعوة، بل لم يظهر البرتغاليون غير راغبين في اعتقاد الإسلام، كما يظهر أن معظم مسلمي سيلان في الوقت الحاضر ينتمون إلى أصول عربية.

Sir James Emerson Tennent: Ceylon, vol. pp. 631-3. (5th ed., Londo, 1860.)

خاصة إلى الزامورن أمر على جانب عظيم من السمو والأهمية، وطلب إليه أن «يدعو الزامورن لقبول الإسلام اتباعًا لأمره – تعالى –: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} [النحل:١٢٥] [٣٣]، وافتح مغلاق الظلمة والباطل الذي أوصد قلبه المظلم، ودع بهاء نور الإيمان، وسطوع ضياء الشمس يشرقان من نافذة روحه».

وقد اختير عبد الرازق [٣٤] لهذه المهمة، فوصل إلى قليقوط بعد رحلة محفوفة بالمخاطر؛ ولكن يظهر أنه قوبل مقابلة جافة، وبعد أن مكث هناك نحوًا من ستة أشهر، ترك الأغراض الأساسية، وقفل راجعًا إلى خراسان فوصل إليها بعد أن تغيب ثلاث سنين.

وهناك جماعة أخرى من المسلمين في جنوب الهند، وهم الرفوتّان Ravuttans [٣٥]، الذين يعزون دخولهم في الإسلام إلى تعاليم الدعاة الذين يمجدون قبورهم حتى الوقت الحاضر. وكان سيد نَتهرشاه [٣٦] (٩٦٩–١٠٣٩م) أشهر هؤلاء الدعاة؛ وكان قد طوّف كثيرًا في بلاد العرب وفارس وشمال الهند، ثم استقر في ترتشناپلي Trichinopoly، حيث قضى بقية حياته في العبادة وأعمال الخير، وحول عددًا كبيرًا من الهندوكيين إلى عقيدة الإسلام. وكثيرًا ما يؤم الناس قبره ويعدونه مكانًا للحج.

وقد أطلق المسلمون على ترتشناپلي اسم نتهرنجر، تيمنًا باسم هذا الولي [٣٧]. وكان سيد إبراهيم شهيد (ويقال إنه ولد حول منتصف القرن الثاني عشر)، وضريحه على شاطئ نهر إراودي بطلًا محاربًا، قاد حملة إلى مملكة پانديان Pandyan، واحتل هذه البلاد اثنتي عشرة سنة تقريبًا، ولكنه قتل أخيرًا. على أنهم أنقذوا حياة ابنه تقديرًا الحكم أبيه الحافل بالخير، ومنح قطعة من الأرض، ولا يزال أعقابه ينعمون بها إلى اليوم. وكان آخر هؤلاء

---

[٣٣] سورة النحل آية ١٢٥.

[٣٤] مطلع السعدين، ورقة ١٧٣.

[٣٥] ونجد هؤلاء بصفة خاصة في مقاطعات مدورا، وتناولي Tinnevelly وكويم بتور Coimbatore وأركوت الشمالية North Arcot وأهلي نيبل جيري Nilgiris من الذين يتكلمون تامل Tamil († وهي لغة يتكلم بها أهالي جنوب الهند).

[٣٦] وتنطق مجلة Imperial Gazetteer of India (vol. xxiv. P. 47) اسمه نادر شاه، ويطلق قادر حسين خان عليه اسم نئد ولي.

[٣٧] Madras Disrtict Gazetteers. Trichinopoly, vol. p. 338. (Madras, 1907). Qàdir Husayn khàn: South India Musalmans, p. 36. (Madras, 1910).

الأولياء شاه الحميد (١٥٣٢–١٧٠٠)، وقد ولد في ما نِكپور في شمال الهند، وقضي معظم حياته في زيارة مشاهد الإسلام المقدسة، وفي القيام برحلات لنشر الدعوة وخاصة في كل أرجاء الهند؛ واستقر أخيرًا في ناجور لا يزال أعقاب ابنه المتبنى يتعهدون قبره [٣٨].

وهناك جماعة أخرى من المسلمين في جنوب الهند، وهم الدودي كولا Dudekulas، يعيشون على تقنية القطن (كما يدل على ذلك اسمهم)، ونسج الأقمشة الخشنة، ويعزون دخولهم الإسلام إلى بابا فخر الدين الذي يمجدونه قبره في بينو كنده Penukonda. وتقول الأسطورة أنه كان في الأصل ملكًا على سيستان، ثم نزل عن عرشه لأخيه وأصبح من سُوّال الهنود المتدينين. وبعد أن حج إلى مكة والمدينة أمره النبي في الرؤيا بأن يذهب إلى الهند؛ وهنا قابل نتهر شاه ولي ترتشناپلي وتتلمذ عليه، فأرسله في صحبة مائتين من سؤال المتدينين في بعثة لنشر تعاليم الدين.

وتستمر الأسطورة فتخبرنا أنهم استقروا أخيرًا بينو كنده على مقربة من معبد هندي. حيث لم يرحب راجا هذا المكان بوجودهم، ولكن بدلًا من أن يلجأ إلى القوة، أجرى اختبارات كثيرة ليقف على ما إذا كان هذا الولي المسلم أو كاهن هذا الراجه أحق بالقداسة التي تؤهله لامتلاك المعبد. وفي اختباره الأخير أمر بكليهما أن يربطا في أكياس مملوءة كلسًا، ثم يلقى بها في صهاريج. وقد رسب الكاهن الهندوكي ولم يظهر، ولكن بابا فخر الدين برهن على تفوق عقيدته بأن انتقل بمعجزة إلى تل في خارج المدينة، ومن ثم دخل الراجا في الإسلام، وحذا حذوه عدد كبير من سكان البلاد المجاورة، وتحول المعبد إلى مسجد[٣٩].

ولا شك أن تاريخ الإسلام في جنوب الهند ظل دائمًا يتسم بطابع السلام، ولكن لا يبدو أن تحول الهندوكيين وغيرهم إلى الإسلام عن طريق الإكراه، الذي ارتكب في الوقت الذي أصبح فيه النفوذ الإسلامي مطلقًا في عهد حيدر علي (١٧٦٧–١٧٨٢)

---

[٣٨] Qàdir Husayn khàn, pp. 36-8.

[٣٩] Qàdir Husayn khan, op. cit. pp. 39-42. Madras District Gazetteers. Anantapur, vol. i. pp. 193-4. (Madras, 1905).

وتيبو سلطان (١٧٨٢–١٧٩٩)، يمكن أن يوازن بما كانت عليه الحال في تاريخ هذا الجزء من بلاد الهند الذي سبق هذا العهد. على أنه مهما يكن من أمر، فليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن تحويل الناس المطرد إلى الإسلام بالطرق السليمة كان من بين الطبقات السفلى [٤٠]، كما هي الحال في الوقت الحاضر حين يزداد دخول الناس من حين إلى حين من أفراد تيبان Tiyans، الذين يقال إنهم يكونون إحدى الجماعات التي تعد من أكثر الجماعات تقدمًا في الهند، وجماعة مكهوَن Mukkuvans، أي طبقى السماكين، وكذلك من طبقة تشرومن Cherumans أسي حراث الأرض، وغيرها من طبقات الرفيق، الذين يخلصهم الإسلام من القيود التي تلحق بالمنبوذين في نظام الهند الاجتماعي.

وقد يحدث كذلك أن يؤخذ الداخلون في الإسلام من بين التيار والأهالي المسيحيين، وفي پوناني Ponnani، مقر الرئيس الروحي لجماعة المسلمين في مليبار، توجد رابطة يطلق عليها «منة الإسلام سبها»، أي مجلس منة الإسلام، حيث يلقن الذين يدخلون في هذا الدين شعائر دينهم الجديد، وتقديم المساعدات المادية إلى هؤلاء الذين ينتظمون في سلك التعليم. وكان متوسط عدد الذين قبلوا في هذا المعهد ممن تحولوا إلى الإسلام ٧٥٠ في خلال السنوات الثلاث الأولى من القرن العشرين [٤١].

وقد بلغ من كثرة تحول الناس من الديانة الهندوكية أن ميول مسلمي الساحل الغربي، وكذلك الساحل الشرقي لبلاد الهند الجنوبية، كانت تجنح إلى الطابع الهندوكي أو الوطني. ويمثل السواد الأعظم منهم الآن، اللهم إلا في حالة بعض الأسر التي تنتمي إلى أصل أرقى، كل الصفات التي تتميز بها شعب أصيل في القومية، مع قليل جدًا من الدم الأجنبي القديم الذي يجري في عروقهم [٤٢].

وفي الأقاليم الواقعة على الساحل الغربي نجد طغيان التعصب الطبقي السفلي أن

---

[٤٠] زين الدين ص٣٣ (س٤)، ٣٦ (س١).

[٤١] Innes, p. 190. Census of India, 1911. Vol. xii. Part. 1. P. 54.

[٤٢] Report on the Census of the Madras Presidency, 1871, W. R. Cornish, pp. 71, 72, 109. (Madras, 1874).

تقترب من البرهمي بأكثر من أربع وسبعين خطوة، كما يجب عليهم أن يصيحوا بصوت كصوت الخنزير وهم يمرون في الطريق إيذانًا بدنوهم. وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع للتدليل على صحة هذا القول. لذلك لا نعجب إذا رأينا الأهالي المسلمين يزداد عددهم بسرعة بسبب دخول الناس في الإسلام من بين هذه الطبقات السفلى الذين يحررون أنفسهم بذلك من مثل هذا الظلم الذي يحقر من شأنهم، والذين يرفعون منزلتهم ومنزلة ذرياتهم في المجتمع.

ويقال في الواقع إنه قد بلغ مع ازدياد عدد الماپيلا الذين يقيمون على الساحل الغربي بسبب من دخل في الإسلام من الطبقة الهندوكية السفلى، أن أصبح في الإمكان أن تتحول كافة الأجناس السفلى التي تقيم على الساحل الغربي إلى الإسلام في سنوات قليلة [٤٣].

وأغلب الظن أن الإسلام قد عبر من مليبار إلى جزائر لكديف وملديف (في خليج بنغالة) التي نجد كافة أهليها الآن مسلمين. ويدين سكان هذه الجزائر بدخولهم في الإسلام إلى تجار العرب والفرس، الذين استوطنوا هذه البلاد، وتصاهروا إلى الأهالي، ومهدوا بذلك السبيل لنشر تعاليم الدعوة في نشاط وقوة. وقد زعم البعض أن تاريخ تحول أول سلاطين جزائر ملديف من المسلمين، وهو أحمد شنورازة [٤٤]، كان حول سنة ١٢٠٠م. ولكن من المحتمل جدًا أن تجار المسلمين كانوا قد أدخلوا دينهم إلى الجزيرة قبل ذلك بوقت لا يقل عن ثلاثة قرون، وأن خطوات هذا التحول لا بد أن تكون من غير شك قد تمت تدريجيًا [٤٥]. بيد أنه لم تصل إلينا معلومات تفصيلية عن ذلك التحول.

وفي مالي Málé، وهي مقر الحكومة، نجد ضريح الشيخ يوسف شمس الدين، أحد أهالي تبريز في إيران وقد قيل إنه كان من دعاة الإسلام الذين أحرزوا نجاحًا في نشر الدعوة في هذه الجزائر. ولا يزال الناس يعظمون قبره، ويقومون دائمًا على إصلاحه، كما

---

(٤٣) Report of the Second Decennial Missionary Conference held at Calcutta, 1882-3 (pp.228,233,248). (Calcutta, 1883).

(٤٤) ابن بطوطة جـ٤ ص ١٢٨. أقام ابن بطوطة في جزائر ملديف في سنتي ١٣٤٣-١٣٤٤م، وتزوج ابنة وزير، وكان سنة ١٢٠٠م عن طريق الحدس والتخمين.

(٤٥) H.C.P. Bell: The Maldive Islands, pp. 23-5, 57-8, 71 (Colombo, 1883).

دفن في نفس هذه الناحية من الجزيرة بعض مواطنيه الذين جاءوا للبحث عنه، وبقوا في جزائر ملديف حتى زمن وفاتهم [٤٦].

ويعزى دخول الإسلام في الأماكن التي تجاور جزائر لكديقت إلى داع عربي، عرفه سكان الجزائر باسم مَمْبا ملايكا؛ ولا يزال قبره يشاهد في أندروتهة. ولما كان قاضي هذا المكان في الوقت الحاضر يدعي أن هذا الداعي هو جده السادس والعشرون، لا يبعد أن يكون هذا الداعي قد وصل إلى هذه الجزائر في وقت ما في القرن الثاني عشر [٤٧].

كذلك كانت منطقة الدكن مسرحًا لأعمال موفقة قام بها كثير من دعاة المسلمين، وقد أشرنا من قبل إلى أن تجار العرب كانوا قد زاروا منذ عصور مبكرة جدًا المدن الواقعة على الساحل الغربي. ويروى أن جماعات كبيرة من العرب استقروا في القرن العاشر في مدن إقليم كان كن، وذلك عندما تزوجوا من نساء البلاد وعاشوا على شرائعهم وديانتهم [٤٨].

وفي عصر أسرتي ملوك بَهَمّني (١٣٤٧–١٤٩٠) وبيچاپور (١٤٨٩–١٦٨٦) دفع إلى الهجرة العربية روح جديد، فقدم الدعاة مع التجار والجنود من ذوي الغنى واليسار يلتمسون القيام بغزوات روحية لأجل الدعوة إلى الإسلام، واكتساب الشعب الكافر في تلك البلاد بدعوتهم إلى الإسلام وطلب الاقتداء بهم. ذلك أنه ليس لدينا خبر مدون عن حدوث تحول عن طريق القوة والإكراه في عهد أسرات الدكن المبكرة، التي يتميز حكمها بتسامح ديني بالغ [٤٩].

وقد وفد أحد دعاة العرب، واسمه پيرمهابير [†] خام دايت، على بلاد الدكن في عصر مبكر يرجع إلى سنة ١٣٠٤م. ونجد من بين الطبقات المستنيرة في بيچاپور سلالات

---

(٤٦) Memoir on the Inhabitants of the Maldive Islands. By J. A. Young and W. Christopher. (Transactions of the Bombay Geographical Society from 1836 to 1838, p. Bombay, 1844).

(٤٧) Innes, pp. 485. 492.

(٤٨) المسعودي جـ ٢ ص٨٥–٨٦.

(٤٩) The Bombay Gazetteer, vol. x. p. 132; vol. xvi. P. 75.

(†) بير = مرشد، وماه= أكبر، =ناسك

من الجين Jains تحولت على يديه[٥٠] وحول نهاية هذا القرن نفسه، أدخل ولي مشهور من جلبرجه(§) Gulbarga، ويدعى سيد مُحَمَّد جيسودراز † [٥١] عددًا من هنود مقاطعة پونا في الإسلام، كما تكللت أعماله بمثل هذا النجاح في منطقة بلجام أو بلجاون Belgaum بعد عشرين سنة [٥٢].

ولا يزال يقيم في دهانو، سلالة أحد أقرباء أعظم أولياء الإسلام، السيد عبد القادر الجيلاني ولي بغداد. وقد جاء إلى بلاد الهند الغربية حول القرن الخامس عشر، وبعد أن أدخل كثيرًا من أهالي كان كن في الإسلام، توفى ودفن في دهانو [٥٣]. وفي مقاطعة دهاروار جماعات كبيرة من عمال النسيج، كان أجدادهم قد تحولوا إلى الإسلام على يد هاشم بيرجوچرات، وكان المعلم الروحي لإبراهيم عاد شاه الثاني أحد ملوك أسرة بيچاپور، وذلك حول نهاية القرن السادس عشر، وهؤلاء القوم لا يزالون ينظرون إلى هذا الولي بعين الرعاية والتجلة، ويحترمون ذريته احترامًا عظيمًا [٥٤].

ولا تزال سلالة ولي آخر، يدعي شاه مُحَمَّد صادق سَر مست حسيني، تقيم في ناسك (§). وقد قيل إنه كان أكثر دعاة المسلمين توفيقًا في دعوته؛ فإنه بعد أن قدم من المدينة في سنة ١٥٦٨، تنقل في معظم جهات الهند الغربية، واستقر أخيرًا في ناسك – وكان قد بدأ في هذه المقاطعة داع آخر من دعاة المسلمين، اسمه خواجة خوندمير حسيني، عمله في نشر الدعوة قبل ذلك التاريخ بخمسين سنة، ولاقى نجاحًا عظيمًا في هذه السبيل [٥٥].

---

[٥٠] Id. Vol. xxiii. P 282.

(§) اسم مدينة في هضبة الدكن تدخل في ممتلكات نظام حيدر أباد.

† كلمة فارسية معناها الطويل الشعر (جيو= شعر، ودراز= طويل).

[٥١] ويطلق عليه أحيانًا سيد مخدوم جيسودراز.

[٥٢] The Bombay Gazetteer, vol. xviii. P. 501; vol. xxi. Pp. 218, 223.

[٥٣] Id. Vol. xiii. Part i. p. 231

[٥٤] The Bombay Gazetteer, Id. Vol. xxii. P. 242.

(§) اسم مدينة في غرب الهند، وهي مكان مقدس عند الهندوكيين.

[٥٥] Id, vol. xvi. Pp. 75-6.

وهناك داعيان عربيان آخران، يمكن الإشارة إليهما، وكان مسرح جهودهما التعليمية في مقاطعة بلجام، ويدعى أحدهم سيد مُحَمَّد بن سيد علي، والآخر سيد عمر عيدروس بيش بان [٥٦].

وهناك حركة أخرى لنشر الدعوة، يمكن أن يقال على وجه التقريب إنها كانت تتركز حول مدينة الملتان [٥٧]. وكانت هذه المدينة في الأيام الأولى من الفتح العربي، أحد المراكز الأمامية للإسلام، حينما كان مُحَمَّد بن القاسم قد أسس حكومة إسلامية كانت لها السيادة في السند (سنة ٧١٤م). وفي خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العربي، كان طبعيًا أن يدخل كثير في دين الغزاة الفاتحين.. وقد استجاب كثير من أمراء السند لدعوة الخليفة عمر بن عبد العزيز إياهم إلى اعتقاد الإسلام [٥٨].

وتحدث البلاذري (الذي كتب بعد ذلك بمائة عام) عن شعب ساون داري Sawandari وقد خضعوا لمحمد بن القاسم ومنحهم السلام على شريطة أن يرحبوا بالمسلمين ويمدوهم بأدلاء لمعرفة بلادهم، واعتبر هذا المؤرخ أنهم أقروا بالإسلام في عهده؛ وكثيرًا ما تشير الرسائل الرسمية التي كتبها الفاتحون إلى دخول الكفار في الإسلام.

ويمكن أن نحكم على ان حالات التحول هذه كانت في جوهرها بمحض إرادة الذين أسلموا. من ذلك التسامح الديني، الذي أظهره العرب لرعاياهم الوثنيين بعد غزوتهم الأولى التي امتازت بشيء من العنف؛ مثال ذلك، أنه سمح لشعب برهمن آباد، وكانت مدينتهم قد فتحت عنوة، بإصلاح معبدهم الذي كان مصدر عيش البراهمة، وما كان لأحد أن يحرم أو يحول دون إقامة شعائر دينه الخاصة [٥٩]. وكان الفاتحون بوجه عام، لا يترددون في تخصيص حي من أحياء المدينة لأصحاب الديانات الأخرى، حيث وجدوا

---

[٥٦] Id. Vol. xxi. P. 203.

[٥٧] في زمن الفتح العربي، كانت أملاك حاكم السند الهندوكي تمتد شمالًا حتى المدينة التي لم تعد الآن داخلة في هذه الإمارة.

[٥٨] البلاذري ص ٤٤١ (في نهاية الصفحة).

[٥٩] Elliot. Vol, i. pp. 185-6.

منهم الخضوع والتسليم، كما كانوا يسمحون بإقامة عقائده وشرائعه الخاصة.

وفي خلال المتاعب التي حلت بالخلافة في النصف الأخير من القرن التاسع الميلادي، آلت لبلاد السند، وكانت الحكومة المركزية قد أهملت شأنها، إلى الانقسام بين عدد من صغار الأمراء، وكان أعظمهم نفوذا أمراء الملتان والمنصورة. وكان طبعيًا أن يضف مثل هذا التفكك من قوة المسلمين السياسية التي كانت في الواقع قد أخذت في الاضمحلال في وقت أسبق من ذلك في هذا القرن نفسه..

ففي عهد المعتصم (٨٣٣–٨٤٢م)، أعلن هنود سندان [٦٠] أنهم مستقلون، ولكنهم أبقوا على المسجد حيث سمحوا للمسلمين أن يجتمعوا فيه ويدعوا للخليفة [٦١]. وقد نجح مسلمو الملتان في الاحتفاظ باستقلالهم السياسي، واحتاطوا لأنفسهم من أن يغزوهم أمراء الهنود الذين يجاورن بلادهم، وذلك بأن أنذروهم إذا هاجمهم هؤلاء الأمراء، أن يحطموا صنمًا كانت تعظمه الهند ويحج إليه من أقاصي بلدانهم [٦٢]. ولكن في اللحظة التي كان المسلمون فيها في انحلال من الناحية السياسية، كان الإسلام لا يزال يحرز نجاحًا متواليًا في نشر الدعوة.

ويروي البلاذري [٦٣] القصة التالية عن تحول أحد ملوك العسيفان إلى الإسلام، وهي بلاد تقع بين قشمير والملتان وكابل. وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنمًا قد بني عليه بيت. فمرض ابن الملك، فدعاه سدنة ذلك البيت، فقال لهم ادعوا الصنم أن يبرئ ابني، فغابوا عنه ساعة، ثم أتوه، فقالوا قد دعوناه وقد أجابنا إلى ما سألناه. فلم يلبث الغلام أم مات. فوثب الملك على البيت فهدمه، وعلى الصنم فكسره، وعلى السدنة فقتلهم. ثم دعا قومًا من تجار المسلمين، فعرضوا عليه التوحيد، فوحَّد، وأسلم، وهناك أثر من آثار نشر الدعوة، يشبه ذلك المثل، أحدثته، من غير شك، تلك الجماعات المتعددة

---

[٦٠] وربما كانت سندان في أبراسا، وهي مقاطعة كتش الجنوبية.

[٦١] البلاذري ص ٤٤٦.

[٦٢] الأصطخري ص ١٧٣–١٧٤.

[٦٣] البلاذري ص ٤٤.

من تجار المسلمين الذين حملوا معهم ديانتهم إلى مدن في هندستان، يدين أهلها بالكفر.

ويذكر جغرافيو العرب في القرنين العاشر والثاني عشر، أسماء كثيرة من أمثال هذه المدن، سواء ما كان منها على الساحل وفي الداخل، حيث بنى المسلمون مساجدهم، وكانوا آمنين في حماية أمرائهم الوطنيين الذين منحوهم حق الحياة في ظل شرائعهم الخاصة [٦٤]. وكان تجار العرب في ذلك الحين وسطاء في التجارة بين السند وبلاد الهند المجاورة وبين العالم الخارجي، وجلبوا منتجات الصين وسيلان إلى موانيء السند، وحملوها من هناك، عن طريق الملتان إلى تركستان وخراسان [٦٥].

وكان يكون من الغريب لو أن هؤلاء التجار، وكانوا منبثين في المدن التي يدين أهلها بالكفر، أخفقوا في إظهار تلك الغيرة في نشر تعاليم الدعوة التي نجدها لدى التاجر المسلم في أي مكان، وأغلب الظن دخول أسرة سمّه Sammas التي حكمت بلاد السند من سنة ١٣٥١ إلى سنة ١٥٢١م في الإسلام، كان يعزى إلى تأثير أمثال طوائف التجار هؤلاء، وبينما نجد المؤرخين يخصمون عهد نندا بن بابينيه أحد أمراء هذه الأسرة، بالإشارة إلى أنه عهد «سلام وطمأنينة، حتى إن هذا الأمير لمْ يطلب إليه قط أن يركب للقتال، ولم ينزل له عدو قط إلى ساحة الحرب» [٦٦]

نجده يوصف في الوقت نفسه بأنه «معروف بعدالته، وكثرة دخول الناس في الإسلام في عهده». لهذا يمكن أن تكون هذه الكثرة راجعة إلى شيء واحد، هو الوسائل السلمية في نشر الدعوة. وكان من أشهر هؤلاء الدعاة، الولي المشهور سيد يوسف الدين أحد، وجاء إلى السند في سنة ١٤٢٢، وبعد أن اشتغل بالدعوة هناك عشر سنين، نجح أن يجذب إلى الإسلام سبعمائة أسرة من عشائر لوهانه، التي حذت حذو شخصين منهم، هما سندرجي، وهنس راج. فهذان قد دخلا في الإسلام، بعد أن رأوا من هذا الولي بعض الكرامات. ولما أسلما تسمى الأول آدم جي والثاني تاج مُحَمَّد. ثم هاجر هؤلاء الأهالي

---

[٦٤] ابن حوقل ص٢٣٠ وما يليها. الأدريسي: (Géographie d'Edrisi, traduire par P. A. Jaubert, vol. i. p. 175 sqq.)

[٦٥] المسعودي جـ ١ ص ٢٠٧.

[٦٦] Elliot, vol. i. p. 273.

فيما بعد، إلى كتش، بزعامة جد الأول، وهناك زادت جماعتهم بمن انضم إليها من الذين دخلوا في الإسلام من بين عشائر لوهانه في كتش[٦٧].

كذلك كانت السند مسرحًا لأعمال الپير صدر الدين، أحد دعاة الإسماعيلية، وكان زعيمًا لفرقة الخوجة حول سنة ١٤٣٠. وقد جرت مبادئ هذه الفرقة على التوفيق والملائمة بين المذاهب والعقائد؛ لهذا تلقب صدر الدين بلقب هندي، وصرح بقبول بعض العقائد الدينية عند الهنود الذين جد في تحويلهم إلى الإسلام، وأدخل بينهم كتابًا عنوانه دس أوتار الذي اعتبر فيه عليّ الأوتار العاشر (المهدي العاشر) أو الصورة المجسدة من وشنو؛ وكان هذا الكتاب منذ البداية الكتاب المقدس الذي تعتمده فرقة الخوجة. ويقرءونه دائمًا إلى جانب فراش الميت، كما يقرءونه في فترات خاصة في كثير من أعيادهم.

ويزعم هذا الكتاب أن مجسدات وشنو التسعة حقيقية من وجهة نظر أتباع هذه الفرقة، ولكنها تنقص الحقيقة الكاملة، كما يجعلون طريقة الوشنوي الناقصة تعقيبًا لمذهب الإسماعيلية الجوهري، وفكرة التجسد وظهور عليّ. أضف إلى ذلك أن هذا الداعي أوَّلَ براهما على أن مُحَمَّد، ووشنو على أنه علي، وآدم على أنه سيوا Siva. وكان أول الداخلين في الإسلام على يد الپير صدر الدين، هؤلاء الذين جذبهم إلى هذا الدين من القرى والمدن الواقعة في أعالي السند. كذلك دعا إلى الإسلام في كتش Cutch. ومن هذه البقاع انتشرت مبادئ هذه الفرقة جنوبًا من طريق جوچرات إلى بومبي. والآن نجد جماعان الخوجات تقيم في جميع المدن التجارية تقريبًا، في الهند الغربية، وعلى الساحل المحيط الهندي [٦٨].

أن الپير صدر الدين لم يكن أول دعاة الإسماعيلية الذين قاموا إلى الهند، فقد سبقه عبد الله، أحد الدعاة الذي أرسل من اليمن حول سنة ١٠٧٦م. وقد قيل إنه كان واسع المعرفة، اعتقد الناس أنه صاحب كرامات كثيرة، ولهذا أقنع عددًا كبيرًا من الهندوكيين

---

(٦٧) Bombay Gazetteer, vol. i. p. 93.

(٦٨) Khojà Vrttànt, p. 208. Sir Bartle Frere: The Khoias: the Disciples of the Old Man of the Mountain. Macmillan's Magazine, vol. xxxiv. Pp. 431, 433-4. (London, 1876)

بصدق ديانته [٦٩]. وهناك داع إسماعيلي آخر، يقال له نور الدين، اشتهر عادة باسمه الهندي الذي اتخذه لنفسه، وهو نور ستاجر، Nur Satagar، أرسل إلى بلاد الهند من ألموت، معقل زعيم الإسماعيلية الأكبر، وبلغ جوجرات في عهد الملك الهندي، سِدْها راج (١٠٤٩-١١٤٣م) [٧٠]. وقد اتخذ لنفسه اسمًا هنديًا، ولكنه أخبر المسلمين أن اسمه الحقيقي هو سيد سعادت. وقد قيل إنه أدخل قبائل كنبي Kanbis وخواروويس أو خوارواس، Khárwas وكوري Koris والطبقات المنحطة في جوجرات [٧١].

وكما كان نور ستاجر موضع تكريم واحترام باعتباره أول داع من دعاة الخوجات، كذلك يعتقد بعض أن عبد الله كان مؤسس فرقة البهرة، إحدى فرقة الشيعة الكبرى المهمة التي ترجع إلى أصل هندي والتي تقيم في جموع كبيرة في مراكز حكومة بمباي التجارية الرئيسية. بيد أن آخرين يعزون شرف القيام بأول دعوة من دعوات فرقة البهرة، إلى الملا علي، الذي يورد أحد مؤرخي الشيعة أخبارًا عما اتبعه هذا الملأ من الوسائل في نشر الدعوة، على الوجه التالي: «لما كان شعب جوجرات في تلك الأيام مشركين، يسلمون زمام دينهم إلى شيخ مسن، ويطيعون تعاليمه طاعة عمياء، رأى ملاّ على ألا حيلة إلا أن يسير إلى هذا الشيخ المسن، ويطلب إليه أن يتلذذ عليه، وقصد بذلك أن يضع نصب عينيه ما لديه من حجج دامغة وبراهين ساطعة لعله يصبح مسلمًا، فيستطيع بعد ذلك أن يحول سائر أتباعه إلى الإسلام. من ثم قضى الملّا عدة سنين في خدمة هذا الشيخ؛ ولما عرف لغة القوم، قرأ كتبهم، وحصّل معرفة بعلومهم، وتمكن شيئًا فشيئًا أن يمسك لعقلية الشيخ المستنيرة حقيقة العقيدة الإسلامية، وحثه على الدخول في الإسلام.

وبعد أن تحول الشيخ إلى هذا الدين، حذا بعض تلاميذه حذوه، وأخيرًا علم كبير وزراء الملك في هذه البلاد، ما صار إليه الشيخ من التحول إلى الإسلام، فسار إليه ليطلع

---

(٦٩) **Bombay Gazetteer, vol. ix. Part ii. P. 26.**

(٧٠) يزعم ك . ب. فضل الله لطف الله أن نور ستاجر قدم إلى الهند في زمن أحدث من ذلك أي في عهد بهيما الثاني (١١٧٩-١٢٤٢). **(Bombay Gazetteer, vol. ix. Part ii. P. 38).**

(٧١) **Khojà Vrttànt, p. 154-8.**

على أمره، ولم يلبث أن أذعن لإرشاده الروحي ودخل مثله في الإسلام. وظل الشيخ وكبير الوزراء، وسائر الذين اعتقدوا هذا الدين، يكتمون إسلامهم وقتًا طويلًا، وكانوا دائمًا يحولون دون أن يصل خبر إسلامهم إلى مسامع الملك خوفًا منه. إلا أنه قد نمى إلى الملك آخر الأمر، أن كبير وزرائه قد اعتقد الإسلام، فشرع في تحري ذلك الخبر. وفي ذات يوم، قدم الملك إلى بيت هذا الوزير، دون سابق تنبيه، فوجده في صلاته حانيًا رأسه، فتضايق الملك من ذلك.

وأدرك الوزير ما يرمي إليه الملك من هذه الزيارة، وأيقن أن نقمة الملك قد حلت عليه بما ساوره من الشكوك والريب التي أثارتها صلاته وما قام به من ركوع وسجود؛ ولكن إلهام الله ومعونته الإلهية قد هيَئا له ما يناسب المقام، فقال الملك إنه إنما كان يفعل هذه الحركات لأنه كان يلاحظ ثعبانًا قويًا في زاوية الجدار. فلما التفت الملك إلى زاوية الجدار ليرى مصداق قوله، أرادت العناية الإلهية أن يرى ثعبانًا في تلك الزاوية، فقبل الملك عذر الوزير، وخلي ذهنه من كل الشكوك.

وكذلك اعتقد الملك الإسلام آخر الأمر، ولكنه أخفى تغيير دينه لأسباب تتعلق بدولته. على أنه حين اقتربت ساعة وفاته وصى بألا يحرق جسده كما جرت بذلك عادة المشركين. وكان من أثر وفاته، أنه عندما غزا السلطان ظفر جوچرات، وكان أحد أشراف السلطان فيروزشاه ملك دلهي كما كان محل ثقة هذا الملك، صحبه في هذه الغزوة بعض وجوه أهل السنة، وجروا على محاجة أهالي جوچرات ليعتقدوا المذهب السني؛ لهذا نجد بعض البهرة سنية على حين ظل السواد الأعظم منهم مخلصين لعقيدتهم الأولى» [٧٢].

وهناك فرق صغيرة كثيرة في كتش جوچرات يرجع دخولها في الإسلام إلى الإمام شاه پيرانه [٧٣]، الذي كان جادًا في أعمال الدعوة، مشتغلًا بها في خلال النصف الأخير من القرن الخامس عشر. وقيل أنه حول جمعًا هائلًا من زراع الهندوكيين إلى الإسلام بأن استسقى لهم، فمطرتهم السماء بعد أن كانوا في قحط فصلين متتابعين. وفي مناسبة

---

[٧٢] نور الله الشوشتري: مجالس المؤمنين. ورقة ٦٥. **(India Office M S. No. 1400).**

[٧٣] مدينة على بعد عشرة أميال جنوب غربي مدينة أحمد أباد.

أخرى، حدث أن ألتقى بجماعة من حجاج الهنود يعبرون من پيرانه في طريقهم إلى بنارس، فعرض عليهم أن يأخذهم إلى هناك، فقبلوا، وفي لحظة وجدوا أنفسهم في المدينة المقدسة، حيث اغتسلوا في نهر الكنج، وأوفوا بنذرهم.

حينئذ تنبهوا، فألفوا أنفسهم لم يبرحوا پيرانه، فاعتقدوا دين ذلك الولي الذي استطاع أن يصنع مثل هذه الكرامة، وتوفي سنة ١٥١٢، ولا يزال قبره في پيرانه مثابة للحجاج من الهندوكيين والمسلمين على سواء [٧٤].

وكثير من مسلمي كتش، الذين ينحدرون من أصل هندي، يعظمون دوال شاه پير ويعدونه زعيمًا وموحيًا لهم، وكان اسمه الحقيقي ملك عبد اللطيف [٧٥]، ابن أحد أشراف محمود بيجَره (١٤٥٩–١٥١١)، الذي كان ملكًا شهيرًا من ملوك أسرة جوچرات الإسلامية، كما تبدأ من عهده تلك الرواية المشهورة التي تؤرخ تحول كثير من الهندوكيين إلى الإسلام [٧٦].

على أن دعاة المسلمين في الهند قد لاقوا أعظم النجاح في البنغال خاصة من حيث كثرة عدد الذين دخلوا في هذا الدين. وفي البنغال تأسست لأول مرة دولة إسلامية في نهاية القرن الثاني عشر على يد مُحَمَّد بختيار الخلجي، الذي فتح بهار والبنغال، واتخذ جور حاضرة الإمارة الأخيرة. وكان طبعيًا أن يساعد استمرار الحكم الإسلامي مدة طويلة، على انتشار الإسلام. ومع أن الحكم الهندي قد أعيد مدة عشر سنين على يد راجا كانس الذي عرف بتسامحه، والذي قيل إن حكمه كام محببًا إلى رعايا المسلمين [٧٧] رفض ابنه جات مَل الديانة الهندوكية واعتقد الإسلام.

وبعد وفاة أبيه سنة ١٤١٤، استدعى كل موظفي الدولة، وجمعهم، وأعلن إليهم

---

[٧٤] Bombay Gazetteer, vol. v. p. 89.

[٧٥] Bombay Gazetter, vol. v. p. 89

[٧٦] Id. Vol. ii. P. 378; vol. iii. Pp. 36-7.

[٧٧] وكذلك Firishtah، ولكن أنظر
H. Biochmann: Contribution to the Geography and Histroy of Bengal. (J. A. S. B., vol. xlii. No. 1, pp. 264-6. 1873).

رغبته في اعتقاد الإسلام، كما أعلن أنه إذا لم يأذن له كبار رجال الدولة باعتلاء العرش، كان على استعداد لأن يتخلى عنه لأخيه. ومن ثم أعلنوا أنهم يرضون به ملكًا عليهم، أيًا كانت الديانة التي يعتقدها. وتبع ذلك أن دعى كثير من علماء الدين الإسلامي ليشهدوا أن الراجا قد نبذ ديانة الهندوكيين وجهر باعتقاد الإسلام. واتخذ لنفسه اسم جلال الدين مُحَمَّد شاه، وتذكر الروايات أن كثيرًا من حالات التحول إلى الإسلام قد تم في عهده [٧٨].

على أن كثيرًا من هذه الحالات كانت راجعة إلى القوة والإكراه، ذلك أن عهده كان يتميز بأنه العهد الوحيد الذي لم تدون عنه على وجه الإجمال اضطهادات وقعت على رعايا الهندوكيين في خلال الخمسة قرون والنصف قرن من الحكم الإسلامي في البنغال الشرقية [٧٩].

على أنه طالما حدثت حالات من التحول إلى الإسلام في أزمان أخرى، بتأثير الحكومة الإسلامية وضغطها. كان راجيات خرك پور ينتمون إلى أصل هندوكي، ثم اعتقدوا الإسلام، لأن أحد قواد أكبر حين غزا ديارهم، قد قد سمح لهم بأن يحتفظوا بضياع أسراتهم، على شريطة أن يدخلوا في الإسلام. وقد حُرم الجد الهندوكي الأكبر لأسرة أسد علي خان، في جتا كانج [†]، مكانته في طبقته بأن أرغم على أن يشم رائحة البقر، وأن يضطر إلى اعتناق الإسلام، وهناك أمثلة كثيرة أخرى من هذا النوع كان من الممكن تدوينها [٨٠].

ونجد مرشد قُلي خان (ابن أحد البراهمة الذين دخلوا في الإسلام)، وكان قد ولاه الإمبراطور أورنج زيب حاكمًا على البنغال في مُستهل القرن الثامن عشر، يفرض قانونًا يقضي بأن أي موظف أو إقطاعي لا يؤدي الخراج الذي ألزم أداءه، أو يعجز عن تعويض ما يلحق البلاد من خسارة، يلزم الدخول في الإسلام هو وزوجته وأولاده. هذا إلى أن لهم

---

(٧٨) J. H. Ravenshaw: Gaur: it's ruins and inscriptions, p. 99. (London, 1878.) Frishtah, vol. iv. P. 337.

(٧٩) Wise, p. 29.

(†) مدينة ساحلية على مقربة من كلكتا.

(٨٠) Census of India, 1901, vol. vi, part i. p. 170.

قانونًا شائعًا يقضي بأن أي هندوكي سقط من مكانته في المجتمع بسبب ما اقترفه من مخالفة للقوانين، لا يستطيع أن يطلب إعادة النظر في قضيته إلا لدى الحكومة الإسلامية؛ فإذا رفضت الحكومة التدخل، حرم طريد القانون أيه وسيلة لاسترداد مركزه في النظام الاجتماعي عند الهندوكيين، وربما كان لا يجد علاجًا لموقفه إلا بالتحول إلى الإسلام [٨١].

كذلك يظهر أن رواد الأفغان الذين استقروا في هذه الإمارة، كانوا على جانب من النشاط في نشر تعاليم الدعوة؛ ذلك أنهم، إلى جانب ما حصلوا عليه من الأطفال الذين ولدوا من النساء الهندوكيات، تعودوا أن يشتروا عددًا من الصبيان في أزمان القحط، وينشئوهم على مبادئ الإسلام [٨٢]. على أن مسلمي البنغال لا يقيمون في جماعات كبيرة في مراكز الحكومة الإسلامية القديمة، ولكنهم يقيمون في الأرياف، أي في المقاطعات التي لا نجد فيها أثرًا للجاليات التي وفدت إليها من الغرب، وفي البقاع التي تقيم فيها الطبقات المنحطة من الهندوكيين، وطريدو المجتمع في كثرة وافرة [٨٣]. وإن تشابه العادات بين هذه الطوائف المنحطة من الهندوكيين وبين أتباع النبي، وخصائص هذه الطوائف التي لا تزال تحتفظ بها، كما احتفظت بالتشابه الجسماني، كل ذلك يحمل دليلًا واحدًا، كما يحمل على الاعتقاد بأن مسلمي البنغال هم القبائل الأصلية في هذه البلاد. وهنا لم يقف في سبيل تقدم الإسلام شيء من النظم الدينية العنيفة، لا كما كانت الحال في شمال غربي الهند، حيث لقي الغزاة المسلمون ديانة البراهمة زاخرة بحياة غضة، وقوة ناشئة بعد أن أحرزت النصر في صراعها مع البوذية، وحيث كان تأثير الإسلام، برغم الاضطهادات، قوة دافعة في وجه المعارضة التي أبداها الهندوكيين، واحتفظ بنفوذه عليهم في أعمق ساعات الشدة والتدهور.

بيد أن دعاة المسلمين قد لقوا في البنغال ترحيبًا عظيماً من السكان الأصليين

---

(٨١) Census of India, 1901, vol. vi, part i. Id. P. 30.

(٨٢) Charles Stewart: The History of Bengal, p. 176 (London, 1813). H. Biochmann: Contribution to the Geography and Histroy of Bengal. (J. A. S. B., vol. xlii. No. 1, pp. 264-6. 1873).

(٨٣) The Indian Evaneglical Review, p. 278 (January, 1883.)

والطوائف المنحطة من أهالي البنغال الذين لم تتغلغل العقائد الهندوكية في نفوسهم، والذين كان حكامهم المعتزون بأنفسهم من الآريين، يحتقرونهم ويغضون من شأنهم. «فجاء الإسلام إلى هؤلاء الفقراء وصيادي السمك والقناصين والقراصين وحرائي الأرض من أفراد العشائر المنحطة، فأعلى منزلتهم ورفع من شأنهم. كان الإسلام عقيدة الجنس الحاكم، كما كان دعاته ذوي غيرة، حملوا بشارة الوحدانية، والمساواة بين الناس إلى الأهالي المحتقرين المنبوذين. وقد جعلت هذه الآراء التي أدخلها هؤلاء الدعاة ارتداد الهندوكيين عن هذا الدين الجديد أمرًا محالًا، كما جعلت المهتدي إلى الدين وذريته مؤمنين مخلصين إلى الأبد.

وبهذه الطريقة، استقر الإسلام في أخصب الولايات الهندية وأغناها، تلك الولاية التي استطاعت أن تسد حاجة السكان الذين بدت كثرتهم في هذه الولاية أشد ما تكون سرعة وازدحامًا. وقلما سجلت حالات التحول الإجباري إلى الإسلام، بيد أن ما أحرزه الإسلام من نجاح مستمر في البنغال السفلي لم يكن راجعًا إلى القوة والعنف؛ فقد راق الإسلام نظر الأهالي، كما انتزع السواد الأعظم من الذين تحولوا إلى هذا الدين من طبقة الفقراء. وأدخل في أذهانهم تصورا أرقى لمعنى الإله، ومثلًا أسمى للأخوة الإنسانية، وقدم للعشائر المنحطة التي غصت به البنغال والتي ظلت أجيالًا دنيئة وضيعة، أبعد ما تكون عن حظيرة الجماعة الهندوكية، منفذًا حرًا، تنفذ منه إلى نظام اجتماعي جديد» [٨٤].

وقد قيل إن ظهور جهود واضحة في نشر الدعوة في البنغال قد أيده ما جاء في بعض أساطيرهم عن حماسة أفراد لأجل دينهم، ولا تزال أضرحة بعض هؤلاء الدعاة مثابة تكريم وتشريف، يزورها في كل سنة مئات الحجاج [٨٥]. ومن أقدم هؤلاء الدعاة الشيخ جلال الدين التبريزي، الذي توفي سنة ١٢٤٤م، وكان تلميذًا للولي الأكبر شهاب الدين السهروردي وفي أثناء رحلاته التي قام بها لنشر الدعوة في بلاد الهند، زار البنغال، حيث

---

[٨٤] Sir W. W. Hunter: The Religions of India. (The times, Febraury, 25,1888.) See also Wise, p. 32.

[٨٥] Wise, p. 37.

بُني له ضريح تكريمًا له، ووقف لهذا البناء هبة خيرية قيمة. أما موقع قبره الحقيقي فغير معروف. وتنسب إليه كرامات كثيرة؛ منها أنه أدخل في الإسلام أحد باعة اللبن من الهندوكيين بنظرة واحدة [٨٦].

وفي القرن التاسع عشر نشطت حركة الدعوة إلى الإسلام في البنغال نشاطًا ملحوظًا، وأرسلت طوائف كثيرة ينتمي أصلها إلى تأثير الحركة الوهابية الإصلاحية، دعاتهم يتنقلون في هذه المقاطعة، يطهرون البلاد من بقايا العقائد الهندوكية القديمة ويوقظون الحماسة الدينية، وينشرون العقيدة الإسلامية بين الكفار [٨٧].

بقيت بعض أخبار عن دعاة المسلمين الذين قاموا بنشر الدعوة في أجزاء من الهند، غير تلك الأجزاء التي ذكرناها من قبل، لا بأس من ذكرها هنا. كان من أسبق هؤلاء الدعاة الشيخ إسماعيل، وكان من أشهر الأولياء الصالحين في بخارى، كما عرف ثقافته الدينية والدنيوية. وقد قيل إنه كان أول داع مسلم دعا إلى عقيدة الإسلام في مدينة لاهور التي كان قد قدم إليها سنة ١٠٠٥م. وقد تدفقت إليه جموع زاخرة ليستمعوا إلى مواعظه، وسرعان ما تزيد عدد الداخلين في الإسلام على يديه يومًا بعد يوم. وقد قيل إنه ما من كافر وفد عليه واتصل بشخصه، إلا تحول إلى عقيدة الإسلام [٨٨].

وقد قيل إن تحول سكان سهول البنجاب الغربية إلى الإسلام كان من آثار دعوة بهاء الحق الملتاني [٨٩]، وباب فريد الدين البكتاني الذي نبغ حول نهاية القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر [٩٠] ويذكر المؤلف الذي كتب سيرة هذا الولي الأخير بيانًا عن ست عشرة قبيلة ظفر بهم الإسلام بفضل دعوته؛ ولكن هذا المؤلف، لم يمدنا لسوء الحظ بشيء من التفصيل فيما يتعلق بنوع العمل الذي قام به هذا الداعي [٩١].

---

[٨٦] Blochmann, op. cit. p. 260.

[٨٧] Wise, p. 48-55.

[٨٨] غلام سرور: خزينة الأصفياء جـ٢ ص ٢٣.

[٨٩] ورواية أخرى تسمية الشيخ بهاء الدين زكريا.

[٩٠] Ibbeston, p. 163.

[٩١] أصغر علي جواهري فريدي (١٠٣٣م) ص٣٩٥ (لاهور ١٨١٤).

ومن أشهر أولياء المسلمين في الهند، وأحد رواد الإسلام في راجبوتانا، خواجة معين الدين خشّتي، الذي توفى في أجمير سنة ١٢٣٤م، وكان احد أهالي سجستان شرقي فارس. وقد قيل إنه تلقى نداء للدعوة إلى الإسلام بين كفار الهند، حينما كان في طريقه إلى المدينة لأداء فريضة الحج. فهنا تجلى له النبي في منامه، وخاطبه بقوله: «لقد عهد إليك الله القدير بلاد الهند، فاذهب إليها واستوطن أجمير؛ ولتنشرن دين الإسلام بعون الله في تلك ابلاد، بفضل تقواك وتقوى من يتبعونك». ولبى النداء، وشق طريقه إلى أجمير وكانت في ظل الحكم الهندوكي في ذلك الحين، وقد سادت عبادة الأوثان في كافة أنحاء هذه البلاد. ومن أسبق الذين تحولوا إلى الإسلام على يديه في هذه البلاد رجل يدعى يوجي، كان المربي الروحي للراجا نفسه. وقد جمع هذا الرجل حوله تدريجًا عددًا عظيمًا من تلاميذه الذين انتشلتهم تعاليمه من صفوف الكفر، وذاعت شهرته زعيمًا روحيًا، وجذب إلى مدينة أجمير جموعًا كبيرة من الهندوكيين الذين حثهم على اعتقاد الإسلام [٩٢]. وقد قيل إنه دخل في الإسلام، وهو في طريقه إلى أجمير ما يقرب من ٧٠٠ شخص من مدينة دلهي.

وكان وصول سيد جلال الدين إلى تلك البلاد ذا أهمية بالغة في تاريخ الإسلام في الهند. وقد قيل إنه ولد في بخارى سنة ١١٩٩م. وفي سنة ١٢٤٤، استقر هذا الداعي في أتس Uch، التي تقع الآن في أراضي بهاول پور [†]، وحول جموعًا من أهالي البلاد المجاورة إلى ٱسلام. وتوفي في سنة ١٢٩١. وظل أعقابه الذين كان كثير منهم أولياء ينظر إليهم بعين الاحترام والإجلال، حفظة على ضريحه حتى الوقت الحاضر، واتخذوا من هذا المكان مركزًا لنفوذ ديني واسع النطاق. ويعتقد قوم أم جد هذا الولي، واسمه سيد أحمد كبير، ويعرف باسم مخدوم جهانيان، كان له أثر في تحويل قبائل كثيرة من أهالي البنجاب [٩٣].

---

[٩٢] Elliot, vol. ii. P. 548.

[†] هي ولاية إسلامية في البنجاب ينتمي حكامها إلى الخلفاء العباسيين.

[٩٣] Punjab States Gazetteers, vol. xxxvi A. Bahwalpur Statte. (Lahore, 1908), p. 160 sqq.

وفي ص ١٦٢ أسماء بعض القبائل التي تنسب تحولها إلى الإسلام إلى مخدومي جهانيان.

ويقع على بعد ميل من شرق أتش ضريح حسن كبير الدين بن سيد صدر الدين الذي كان معاصرًا لجلال الدين، وقد قيل إن كلا من الأب والابن قد ادخلا كثيرًا من الناس في الإسلام، وقد بلغ من النفوذ الذي نسب إلى حسن كبير الدين، أنه قيل إن أي هندي كان يعتقد الإسلام، بمجرد نظرة يلقيها عليه هذا الولي [٩٤].

وفي وقت متأخر كثيرًا في هذا القرن نفسه، وفد على الهند أحد أهالي العراق الفارسي، ويدعى أيا علي قَلَنْدر، واتخذ مقامه في باني پت [†] Panipat، حيث توفي وقد أكل المائة من عمره، وذلك في سنة ١٣٢٤م. وينتمي أفراد القبائل من مسلمي هذه المدينة، وكان عددهم حول ٣٠٠ من الذكور، إلى شخص يدعى أمير سنكه Singh، وكان قد تحول إلى الإسلام على يد هذا الولي. ولا يزال قبره مثابه تكريم وتشريف، يقصد إليه كثير من الحجاج.

ومن أمثال هذا الولي، رجل فارسي يقال له الشيخ جلال الدين، وكان قد قدم الهند حول النصف الأخير من القرن الرابع عشر واستقر في سلهت، في أسّهام السفلى، بقصد تحويل أهالي هذه الجهات إلى الإسلام. وقد نال شهرة واسعة كرجل مبارك، وتكللت أعماله في نشر تعاليم الدعوة بنجاح باهر [٩٥].

وفي سنوات أحدث من ذلك، نجد شواهد كثيرة تدلنا على أن الإسلام كان في طريقه إلى الانتشار في الهند، وفي نجاح عظيم جدًا. وقد دل النصف الثاني من القرن التاسع عشر بوجه خاص، على نهضة عظيمة في نشاط الدعوة، فأصبح عدد الذين كانوا يدخلون في الإسلام سنويًا يتفاوت بين عشرة آلاف، وخمسين ألفًا، ومائة ألف، وستمائة ألف [٩٦]. على أنه من العسير أن نحصل على معلومات دقيقة عن وصف الطابع الفرد

---

[٩٤] Id. P. 171.

[†] مكان في الهند وقعت فيه ثلاث مواقع حاسمة، الموقعة الأولى هزم فيها بابر، إبراهيم لودهي في أبريل سنة ١٥٢١م، والموقعة الثانية هزم فيها جلال الدين محمّد أكبر، هيمو البقال في سنة ١٥٥٦م، والموقعة الثالثة، وهي أشهرها هزم أحمد شاه الدراني شب مرهته الهندوكي سنة ١٧٦١م.

[٩٥] ابن بطوطة جـ٤ ص٢١٧. Yule, p. 515.

[٩٦] The Indian Evangelical Review, vol. xvi, pp. 52-3. (Cacutta, 1889-90.)

الخاص الذي يتميز به نشاط الدعوة الإسلامية، وعن عدم وجود أي نظام مستقى أو عن أي شيء يتعلق بأخبار الدعوة، وإن النجاح الذي لازم أعمال الدعاة المسلمين قد بولغ فيه أحيانًا إلى حد بعيد. فمثلًا قيل إن رجلًا في البنجاب يدعى حاجي مُحَمَّد قد أدخل ما يقرب من مائتي ألف هندوكيا في الإسلام [٩٧]، وإن أحد المولوية في بنكلور Bangalore قد افتخر بأنه حول إلى الإسلام ما يقرب من ألف شخص من أهالي تلك المدينة وضواحيها في مدى خمسة أعوام. ولكن الذي لا شك فيه أنه كان هناك دعاة مسلمون اشتغلوا بأعمال الدعوة، في نشاط وتوفيق، وتنطبق الأمثلة الآتية على هذه الفترة التي أشرنا إليها.

أدخل مولوي بقا حسين خان، وهو داعية متنقل في البلاد، ٢٢٨ شخصًا في الإسلام، في مدى سبع سنين، وكانوا يقيمون في بمباي، وكان بور، وأجمير، ومدن أخرى. وحول مولوي حسن علي ٢٥ شخصًا إلى الإسلام، اثنى عشر منهم من أهالي بونا، والباقي من حيدر وجهات أخرى من الهند [٩٨].

The Contemporary Review, February 1889. P. 170. The Sepctator, October 15, 1887, p. 1382.

[٩٧] Garcin de Tassy: La Langue et la Littérature Hindoustanies de 1850 à 1969, p. 343, (Paris, 1874.)(م-٣١)

[٩٨] أمدني مولوي حسن علي بهذه المعلومات قبل وفاته سنة ١٨٩٦ ببضع سنين. وفيما يلي نذكر وصفًا طريفًا لحياته، ورد في بعض ما نشرته مجلة The Moslem Chronicle (٤ أبريل سنة ١٨٩٦) في نعيه: "كان معروفًا في حياته الخاصة والتعليمية بأنه فتى ذكي مفرط الذكاء، أحرز تقدمًا كبيرًا في حياته العلمية في مدى وقت قصير. واجتاز امتحان الدخول في سن مبكرة جدًا، ومنح مكافأة دراسية ساعدته على نيل درجة البكالوريوس من الطبقة الأولى. ولكن لم يلبث أن دفعه طموحه الغريزي إلى البحث عن الحقيقة، إلى السفر إلى الخارج والتنقل في بلاد العالم، فترك دراسته، وعاشر الناس على اختلاف نزعاتهم؛ فعاشر فقراء الهنود، وفرقة البنديين والمسيحين، ودخل الكنائس، وجاي خلال الأدخال والأحراج والمدن دون أن يكون له ما يعينه إلا ما آماله وإخلاصه واعتماده المطلق على رحمة الإله الأعظم. وفي مدى سنة واحدة، تنقل في مختلف المناطق الدينية حتى قبل في سنة ١٨٧٤ وظيفة ناظر في إحدى مدارس باتنا. ولما كان استعداد الفطري يؤهله لأن يكون داعيًا إلى العقيدة الإسلامية، أحسن بحنين خفي يدفعه إلى ترك منصبه الذي كان يتقاضى منه مائة روبية شهريًا. فقدم استقالته، على كره من أصدقائه، وظل وقتًا يصدر جريدة شهرية "نور الإسلام" وألقى محاضرات كثيرة في الإسلام في باتنا، ثم رحل إلى كلكتا حيث ألقى محاضرته باللغة الإنجليزية، وقد بلغ من تأثيرها بالكثير أن يدخل في الإسلام. وقد دعاه أهالي دهاكة لزيارتهم، وهناك خلدت مواعظه وحاضراته اسمه في قلوب المواطنين، وقد جعلت مؤلفاته، ورسائله، ومحاضراته المتوالية باللغتين الأردية والإنجليزية، في مختلف المدن والبلدان في الهند، له اسمًا تاريخيًا في العالم. وقد أصبح مائة رجل مسلمين عند ما استمعوا إلى محاضراته وقرأوا كتبه، وتجلت حماسته

وفي مقاطعة خندش، في مقر حكومة بمباي، ظفرت دعوة قاضي ناصر أباد، وهو سيد سفدر علي، بدخول جمع كبير من الصناع في الإسلام، وهم الذين زاولوا صناعة الحدادين أو القيون [٩٨]. وحول سنة ١٨٧٠ تحول عدد من الأشخاص الذين كانوا يحترفون هذه الصناعة نفسها، وكانوا يؤلفون زمرة قليلة يبلغ عددها نحو ٢٠٠ شخص في مقاطعة ناسك، إلى الإسلام بطريقة عجيبة. وكان المبشرون المشيخيون [§] في ناسك يحاولون منذ وقت طويل تحويل أهالي ناسك عن العقائد الهندوكية. وبينما كان هؤلاء الأهالي مترددين بين اعتقاد المسيحية ورفضها، إذا بأحد فقراء المسلمين من بمباي، وكان ملمًا حسن الإلمام بعادات تفكيرهم، يشرح لهم مبادئ الإسلام، ويفلح في جذبهم إلى هذا الدين [٩٩].

وكان في پاتياله [†]، مولوي عبيد الله، وهو أحد الذين دخلوا في الإسلام من البراهمة، وكان على جانب عظيم من الثقافة، وقد برهن على أنه داعية غيور على الإسلام. وعلى الرغم مما وضعه أقرباؤه في طريقه أول الأمر من عقبات، أحرز نجاحًا بلغ من عظمه أن الذين دخلوا في الإسلام على يديه، كادوا يملئون حيًا بأكمله من أحياء المدينة. وقد كتب في الجدل مؤلفات، طبعت طبعات كثيرة، كانت موجهة إلى الديانتين المسيحية والهندوكية. وفي أحد هذه المؤلفات، يتحدث عن تحوله هو إلى الإسلام، بقوله: «أنا، مُحَمَّد عبيد الله، بن منشي قُطامل، ساكن پيال Payal في ولاية بتاليه، أعلن أن هذا العبد الفقير، كان في طفولته وفي أثناء حياة والده، أسير عبادة الأوثان، ولكن رحمة الله انتشلتني بيدها، وجذبتني إلى الإسلام. من ذلك أني انتهيت إلى معرفة مزية الإسلام ونقائص الهندوكية، فرضيت الإسلام دينًا بقلبي وروحي، وعددت نفسي خادمًا لرسول الله

في نشر الدعوة حتى آخر لحظة من حياته، حين سمعه بعض الناس خلسة وهو يقول على فراش الموت: "اترك دينك وصر مسلمًا" فلما سئل في ذلك قال إنه يتحدث إلى أحد المسيحيين.

[٩٨] **Bombay Gazetteer, vol. xii. P. 126.**

[§] نسبة إلى مشيخة الكنيسة.

[٩٩] **Id. Vol. xvi, p. 81.**

[†] اسم ولاية هندية يسكنها السيخ.

عليه السلام. وفي ذلك الوقت هدتني الفطنة، التي هي هبة الله إلى أنه من فرط الحماقة والغباوة أن يتبع المرء عادات أجداده اتباعًا أعمى، فيضل بها، وألا يتأمل ويبحث في مسائل الدين والعقيدة، التي عليها تعتمد سعادتنا الأبدية أو شقاوتنا.

وبهذه الأفكار أخذت في دراسة العقائد السائرة، وبحثت كلا منها غير متحيز ولا محاب؛ فعرفت الهندوكية معرفة تامة، وتباحثت مع البنديت المتعلمين، وحصلت على معرفة تامة بالدين المسيحي، وقرأت كتب الإسلام وتباحثت مع علماء المسلمين، ووجدت في جميعها أخطاء وأباطيل، إلا الإسلام الذي تجلت لي مزيته جلاء بينا. ولزعيم هذا الدين، النبي مُحَمَّد، من المزايا المعنوية، ما يعجز اللسان عن وصفه، وهو بمفرده الذي يعرف أصول هذا الدين وقواعده، وتعاليمه الخلقية، وشعائره، كما يدركها إدراكًا تامًا. والحمد لله إن هذا الدين قد بلغ من السمو أن كل شيء فيه يهدي الروح إلى الله. وبالجملة أصبح التمييز بين الحق والباطل، بفضل الله، متجليًا عندي الليل والنهار والظلمة والنور. ولكن مع أن قلبي قد استنار مدة طويلة، بنور الإسلام وفمي قد تعطر بالإذعان للعقيدة، كانت هواجس الشر والشيطان تكبلني بأغلال من بهجة هذه الحياة الفانية ودعتها، وكنت حالة سيئة، بسبب الشعائر الظاهرية الخاصة بعبادة الأوثان. عندئذ نبهتني رعاية الله أخيرًا «إلى متى تحتفظ بهذه الجوهرة التي لا تقدر بثمن، كامنة في صدفتها، وهذا الأريج المنعش مغلقًا في علبته؛ يجب أن تقلد عنقك هذه الجوهرة، وأن تنتفع بهذا الأريج».

هذا إلى أن العلماء قد جهروا بأن من يكتم عقيدته في الإسلام، ويبقي على زي الكفار وعاداتهم، فإن مثواهم جهنم. لهذا ولله الحمد، بزغت شمس دخولي في الإسلام يوم عيد الفطر من سنة ١٢٦٤م من أستار سحائبها، وأديت عباداتي جهارًا مع إخواني المسلمين [١٠٠]».

وقد اتخذ كثير من دعاة المسلمين وسائل المبشرين المسيحيين، من ذلك الوعظ في

---

[١٠٠] تحفة الهند ص ٣ (دلهي ١٣٠٩ هـ).

الطرقات، وتوزيع المنشورات، وغير ذلك من الوسائل. وفي كثير من المدن الكبرى في الهند، قد يوجد دعاة المسلمين يوميًا يشرحون تعاليم الإسلام في بعض الطرقات العامة الرئيسية. ونجد هذه العادة شائعة جدًا في بنكلور، وقد بلغ من محبة الشعب لأحد هؤلاء الدعاة، وكان إمامًا المسجد حول سنة ١٨٩٠، أن الهندوكيين أنفسهم كانوا يدعونه أحيانًا ليلقي عليهم عظاته. وكان يدعو إلى الإسلام في الأسواق، وفي مدى سبع سنوات أو ثمان، ظفر باثنتين وأربعين دخلوا في هذا الدين.

وفي بمباي، يدعو أحد الدعاة المسلمين إلى الإسلام، كل يوم تقريبًا، على مقربة من السوق الرئيسية للمدينة، وفي كلكتا توجد مراكز كثيرة للدعوة إلى الإسلام، معدة على الدوام لهذا الغرض. وقد نجد بين الذين دخلوا في الإسلام من حين لآخر، بعض الأوروبيين، ومعظمهم ممن اضطرتهم الظروف إلى الفقر والإعواز. على أن جمهور الداخلين في الإسلام من الهندوكيين [١٠١]. ونجد بعض الجمعيات الكثيرة التي نشأت في السنين الأخيرة، في مراكز الحياة الإسلامية الرئيسية في الهند، تجعل من بين أهدافها إرسال الدعاة للدعوة إلى الإسلام في الأسواق. ومن أمثال هذه الجمعيات أنجو مان حمايت إسلام بلاهور، وأنجومان حامي الإسلام بأچمير. وهذه الأنجومان بوجه خاص، تعين دعاة يتقاضون رواتب كفاء قيامهم بهذا العمل. ولكن كثيرًا جدًا من أعمال الدعوة في الأسواق، إنما يقوم بها أشخاص يشتغلون في مهنة أو عمل ما في أثناء ساعات النهار، ويخصصون أوقات فراغهم في المساء لهذا العمل الديني.

ويتجه كثير من الحماسة في الدعوة عن مسلمي الهنود إلى مناهضة ما يقف في سبيل الإسلام من الاتجاهات التعليمية التي ينزع إليها المبشرون المسيحيون ودعاة آرية سماج Arya Samàj، ومن ثم كانت الجهود التي بذلت في هذه السبيل جهودًا دفاعية، أكثر من أن تكون متصلة اتصالًا مباشرًا بنشر تعاليم الدعوة. كذلك يصرف بعض الدعاة عنايتهم، بوجه خاص، إلى تدعيم الأساس الذي وضع من قبل، ومحاولة تخليص إخوانهم

---

[١٠١] The Indian Evangelical Review, 1884, p. 128. Garcin de Tassy: La Langue et la littérature Hindoustanies de 1850 à 1869, p. 485. (Paris, 1874.) Garcin de Tassy: La Langue et la littérature Hindoustanies EN 1817, P. 12, (Paris, 1872.)

في الدين من الجهال من خرافاتهم الهندوكية القديمة، وبث صورة من العقيدة، أنقى في نفوسهم. وإن أمثال هذه الجهود، ليست في كثير من الأحيان إلا استمرارًا لذلك النشاط القديم في الدعوة، وفي الحق أن ما قام به الدعاة في سبيل إدخال الناس في الإسلام كان أغلب الأحيان عملًا ناقصًا مبتورًا. ويمكن أن يقال عن كثير من الذين تحولوا إلى الإسلام تحولًا اسميًا أنهم أشباه هندوكيين؛ فهم يراعون نظم عشائرهم القديمة، ويشاركون في الأعياد الهندوكية، ويقيمون كثيرًا من الشعائر الوثنية.

كذلك في بعض المقاطعات، في ميوات Mewat وكركاون Gurgaon مثلًا، قد نجد جماعات كبيرة من المسلمين لا يعرفون من ديانتهم إلا اسمها، وليس لديهم مساجد، ولا يراعون أوقات الصلاة. وهذه هي الحالة، بوجه خاص، بين مسلمي القرى أو في الجهات التي يسكن فيها الأهلون بعيدًا عن جمهور المؤمنين. أما في المدن، فإن وجود علماء الدين يساعد إلى حد كبير، على مناهضة تأثير العقائد القديمة، ويعمل على تكوين صورة من الحياة الدينية، أكثر نقاء وأشد إدراكًا من الحياة السابقة. على أنه في السنين الأخيرة يمكن أن يقال بوجه عام، أن هناك حركة تستحق الذكر، قامت لمسلمي الهنود، ترمي إلى أن يأخذوا أنفسهم بحياة دينية، أشد تمسكًا بشرائع الإسلام، كذلك كان لمدارس التبشير المسيحي أثر كبير جدًا في حث بعض مسلمي الجيل الذي تلا ذلك الجيل على دراسة ديانتهم، وفي إثارة يقظة في الحماسة الدينية. وفي الحق، أن انتشار التعليم، بوجه عام، قد أدى إلى تمثل المبادئ الدينية، تمثل أكثر إدراكًا. وإلى زيادة عدد المعلمين الدينيين في المقاطعات المجاورة التي أهمل شأنها إلى الآن. وأيا كان منشأ حركة الدعوة الإصلاحية هذه، فإن من الممكن أن نلحظ قيام هذه الحركة في جهات مختلفة جدًا من بلاد الهند.

ففي مقاطعات البنجاب الشرقية – مثلًا – قامت نهضة دينية عظيمة بعد إعلان العصيان والثورة. ويتنقل الدعاة في طول البلاد وعرضها، يدعون المؤمنين إلى نبذ شعائرهم الوثنية، ويبسطون لهم مبادئ العقيدة الخالصة. وكان من أثر ذلك أن بنيت الآن مساجد في معظم القرى التي يمتلك فيها المسلمون أي نصيب لا يستهان به، على حين أن الأهالي

أخذوا يكفون الآن عن إقامة العبادات الوثنية التي كانت أكبر مظهرًا وأكثر علانية [١٠٢].

وكذلك في راجپوتانه، نجد القبائل الهندوكية التي كانت تدخل في الإسلام من حين إلى حين في المناطق الريفية، تصبح الآن أكثر محافظة على أصول الإسلام، وأشد مواظبة على إقامة شعائرهم الدينية، وتنبذ العادات القديمة، التي كانت حتى ذلك الحين تشارك جيرانها الوثنيين في المحافظة عليها. فقبيلة ميرات Merats مثلًا، تتبع الآن الطريقة الإسلامية في الزواج، بدلًا من النظم الهندوكية، التي كانوا يتبعونها من قبل. كما أنهم نبذوا أكل لحم الخنزير [١٠٣]. وفي البنغال نهضة مماثلة تحدثنا عنها من قبل.

ولكن مثل هذه الحركات وجهود الدعاة الفردية، لا تكفي مطلقًا لشرح سرعة ازدياد عدد مسلمي الهند. وكان طبعيًا أن يؤدي ذلك إلى أن يتحرى المرء الأسباب الأخرى، أكثر من أن يتحرى الزيادة العادية في عدد السكان [١٠٤]، تلك الأسباب التي ساعدت على زيادة عدد هؤلاء السكان زيادة هائلة. وإنا نجد الجواب في أحوال الحياة الاجتماعية عند الهندوكيين. وإن الإهانات والاحتقار الذي انصب على الطبقات المنحطة من الهندوكيين على أيدي إخوانهم في الدين. والعراقيل التي لا يمكن التغلب عليها، والتي وضعت في سبيل أي فريق من هذه الطبقات يرغب في تحسين حالته، ليوضح لنا في هذه المفارقة العجيبة فوائد النظام الديني الذي لا يفرق بين منبوذ وغير منبوذ، والذي يهيئ مجالًا حرًا للتمتع بأي مطمح. ففي البنغال مثلًا، يعتقد الإسلام هؤلاء الذين يقومون بنسج القطن، والذين ينظر إليهم أخواتهم في الدين من الهندوكيين كما ينظر المرء من السفلة والطغام، في جماعات كبيرة ليتخلصوا من المركز الوضيع الذي انحدروا إليه [١٠٥]

وهنالك مثل واضح جدًا عن نوع مماثل في تاريخ الجزء الشمالي الشرقي لهذا

---

[١٠٢] Ibbeston, p. 184.

[١٠٣] The Rajputana Gazetteer, vol. i. p. 90; vol. ii. P. 47. (Calvutta, 1879.)
The Census of India, 1901. Vol. vi. P. 172.

[١٠٤] الوقوف على الأسباب التي كان لها أثر في زيادة عدد المسلمين راجع:
The Census of India, 1901. Vol. vi p. 172.

[١٠٥] E. T. Dalton. P. 324.

الإقليم نفسه فهنا في سنة ١٥٥٠ أسست قبيلة كوجه Kocch الأصلية أسرة بزعامة رئيسهم العظيم «حاچو» Haju. وفي عهد حفيده، لما وجد السواد الأعظم. من الناس الطبقات العالية تدخل في حوزة الهندوكية [١٠٦]، وألفى جمهور الشعب نفسه محتقرًا كالمنبوذين، دخلوا في الدين الإسلامي [١٠٧].

وإن الخلاص الذي يقدمه الإسلام إلى الهندوكيين من ظلم الطبقات العليا، ليتضح بصورة عجيبة في إقليم تناولي Tinnevelli في نهاية القرن التاسع عشر. فإن طائفة منحطة جدًا، وهي طائفة الشنار Shanara، قد أصبحت في السنين الأخيرة في رغد من العيش، وبنى كثير من أفرادها دورًا جميلة. وادعوا أن من حقهم أن يتعبدوا في معابدهم التي كانوا قد أقصوا عنها إلى ذلك الحين. وتبع ذلك قيام هياج قاسي منه الشنار كثيرًا على أيدي الهندوكيين الذين ينتمون إلى طبقة أعلى، ولجئوا إلى حظيرة الإسلام. وقد دخل ستمائة من الشنار في قرية واحدة في الإسلام، ولم يلبث أن اقتفى الناس أثرهم في أماكن أخرى [١٠٨].

ونستطيع أن نأتي بأمثلة كثيرة متشابهة من جهات أخرى في الهند، فإن الهندوكي الذي نبذته طبقته بطريقة ما، وطردته تبعًا لذلك أسرته وجماعته التي اعتاد أن يتنقل بينها، كان طبعيًا أن ينجذب نحو دين يقبل جميع الناس من غير تمييز، وأن يبوئه المجتمع منزلة تماثل في المستوى الاجتماعي، تلك المنزلة التي كان قد أقصى عنها. وإن مثل هذا التحول كان يقترن في العادة بإيمان صادق بهذا الدين وعقائده. ولكن الرجال، الذين ربما كانوا لا يكترثون مطلقًا لعدد الآلهة أو أسمائهم، تلك الآلهة التي دعوا لعبادتها، قد يحسون إحساسًا جديًا بحرمانهم وطردهم من الهيئة الاجتماعية، وما نتج عن ذلك من ضياع حقوقهم في طبقتهم. ويصبحون مسلمين من غير أن يكون لهم شعور ديني. ولا بد أن يكون تأثير دراسة الأدب الإسلامي، واتصالهم بحكم العادة بالهيئة الاجتماعية الإسلامية، قد جعل الهنود يحسون ذلك التأثير بطريقة لم يشعروا بها. ففي راجبوتانه وبنديل كِهَند

---

[١٠٦] الوقوف على إدخال القبائل الأصلية في الهندوكية راجع:
Sir Alfred Lyall: Asiatic Studies, pp. 102-4.

[١٠٧] E. T. Dalton, p. 89.

[١٠٨] The Missionary Review of the World, N. S. vol. xiii, pp. 72-3. (New York, 1900.)

Bundelkhand، كانت أمثال هذه النزاعات التي تجنح إلى الإسلام ظاهرة في القرن التاسع عشر، بين أمراء راجه بوت [١٠٩] ولو أن إمبراطورية المغول بقيت، لكان من المحتمل أن تؤدي هذه النزاعات إلى تحول هؤلاء الأمراء نهائيًا إلى الإسلام.

فإنهم لم يقتصروا على احترام أولياء المسلمين، بل عهدوا في تعليم أبنائهم إلى معلمين من المسلمين، وذبحوا الحيوانات وفق الشريعة الإسلامية، واشتركوا في الأعياد الإسلامية وهم يرتدون زي الفقراء، وصلوا كما يصلي المسلمون المتمسكون بدينهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى زعم بعض أن الأحوال الحاضرة تجعل ازدياد تحول الهندوكيين إلى الإسلام أمرًا أكثر احتمالًا في عهد حكومة بعيدة كل البعد عن التحيز والمحاباة في المسائل الدينية، بخلاف ما كانت عليه الحال في ظل الممالك الإسلامية، حين ظفر الهندوكيين بتوحيد كلتهم وزيادة قوتهم من جراء النزاع المستمر مع هؤلاء الأعداء المهاجمين [١١٠].

كذلك كان الهندوكيون يذهبون زرافات ووحدانًا لزيارة أضرحة الأولياء، في يوم إحياء ذكراهم. وكان الرجل الذي لم ينجب أطفالًا، يقدم أكف الضراعة إلى إله المسلمين، مدفوعًا بذلك الشعور الذي يدفع المشرك بأن لا يدع إلهًا من غير أن يلقي إليه بالمودة ويتقدم بالدعاء، فإذا ما استجيب دعاء أحدهم وقضيت حاجته، وأنجب ولدًا، بر قسمته ودخل جميع أفراد الأسرة في مثل هذه الحالة (والأمثلة على ذلك كثيرة) في الإسلام [١١١].

---

[١٠٩] يتحدث سير ألفرد ليال (Asiatic Studies, p. 29) عن الميل الظاهر إزاء عقيدة الإسلام الذي كان يظهره بعض الزعماء الهندوكيين من حين إلى حين.

[١١٠] Gazetteer of the Province of Oudh. Vol. i. p. xix.

[١١١] ولنأتي بمثل واحد فقط ففي غاتمبور Ghàtampur في مقاطعة كان فور، نجد أحد فروع أسرة كبيرة يدين الإسلام استجابة لقسم جدهم غانم ديوبيتر Ghàtam Deo Baia. فإنه قد نذر، لما كان يدعو الله في ضريح أحد أولياء المسلمين، وهو مدار شاه، أنه إذا استجيب دعاؤه، أن تنشأ نصف سلالته تنشئة إسلامية. وكانت عبادة أولياء المسلمين شائعة جدًا بين بعض أفراد الطبقة السفلى من الهندوكيين، حتى إن ٢,٢٣٣,٦٤٣ هندوكيا (أو ٥,٧٨% من مجموع سكان المقاطعات) قد أثبتوا في تذاكر التعداد الذي أجرى في سنة ١٨٩١ في الولايات الشمالية الغربية وفي أوده Oudh وحدها، أنهم من عباد أولياء المسلمين.

(Census of Indai, 1891, vol. xvi. Part. i. pp. 217, 244) (Aldahabad, 1894.)
Gazetteer of the N.W.P. vol. xi. Pp. 64. 239.)

وقد يكون حب المرأة المسلمة سببًا في تحول الهندوكي إلى الإسلام، إذ أن الشريعة الإسلامية تحرم تحريمًا قاطعًا زواج المرأة المسلمة من الكافر. وإذا تبنّى المسلمون أطفالًا هندوكيين، تربوا على دين آبائهم الجدد. كما أن المرأة الهندوكية التي تتزوج ممن يتبع دين النبي، تعتقد في الغالب ديانة زوجها [١١٢]. ولما كان من النادر أن يحدث العكس، استلزم ذلك زيادة عدد المسلمين بنسبة زيادة عدد الهندوكيين. وكان الهندوكيون، الذين طردوا من طبقاتهم لسبب ما، والفقراء الذين أصبحوا يعيشون على صداقات المسلمين، أمثال هذه الحالات في أوقات القحط ـ كل ذلك يكون مجرى مستمرًا، ولو أنه صغير، يزيد في عدد الذين تحولوا إلى الإسلام من الهندوكيين [١١٣].

وطالما كانت هناك أحوال محلية تتناسب مع نمو الإسلام. مثال ذلك ما أشرنا إليه من قبل [١١٤] من أن أي نمو في سيادة المسلمين كان في قرى تيري **Terai** التي اتفق أن تساوى فيها عدد الهندوكيين وعدد المسلمين، وأن ذلك النمو كان يتبعه دائمًا قيام المنازعات حول ذبح البقر وغيره من الشعائر التي تسوء شعور الهندوكيين. وكان الهندوكيون يرحلون من القرية تدريجًا، غير تاركين وراء عقيدتهم إلا حراثي الأرض من الشمار في خدمة زراع المسلمين، وينتهي الأمر بهؤلاء إلى اعتقاد دين أسيادهم. ولم يكن ذلك منبعثًا من أي إيمان بصدقه، وإنما كان ذلك راجعًا إلى ما تجره عزلتهم عن إخوانهم في الدين من متاعب.

وكذلك نجد بعض الأمثلة البارزة لتحول الناس إلى الإسلام بين الطبقات الدنيا من الهندوكيين في المراكز الزراعية في أوده **Oudh**. ومع ان المسلمين في هذه المقاطعة يؤلفون عشر جميع السكان فقط، لا تزال الجماعات الصغيرة من حراث المسلمين يكونون «مراكز مبعثرة للثورة على الظلم الشائن الذي أسلم دينهم إليه هذه الطبقات الدنيا

---

[١١٢] وقد وردت أمثلة لمثل هذا التحول في
Census of Indai, 1901, Vol vi. Bengal, part. 1, Appendix ii.

[١١٣] **Report on the Census of the N.W.P. ans Oudh, 1881, by Edward White, p. 62. (Allhabad, 1882.)**

[١١٤] **Ibid. p. 63.**

بصورة تبعث على اليأس والقنوط» [١١٥].

وإن المزايا التي يقدمها الإسلام لأمثال هذه الطبقات، كطبقتي الكوري Koris والجمار Chmars اللتين بقيتا في أحط درجات المجتمع الهندوكي، والخلاص الذي نالوه عن طريق تحولهم إلى الإسلام، قد يفهم على أحسن وجه من هذه العبارة التي تصف حالتهم الاجتماعية باعتبارهم هندوكيين [١١٦]. «لقد بلغ الكوري والجمار، الذين يقومون بأعمال النسج وقطع الجلود لسائر مواطنيهم، أحط درجات البؤس والانحلال. ففي الولايات الشمالية نجد أكثر هؤلاء في الواقع أرقاء مستعبدين، ليس من السهل مطلقًا أن تتهيأ نفوسهم للإفادة من العلاج الذي تقدمه دور القضاء عندنا، ويهبطون مع أطفالهم جيلًا بعد جيل كما تهبط قيمة السلعة القديمة، وهم يمسكون المحراث البرهمي أو الشّتْري [§]، الذي تحرم عليه كبرياء طبقته أن يمسه، ويعيشون مع الخنازير التي لا تقل قذارة عنهم في أحياء منعزلة بعيدة عن سائر سكان القرية.

ولما كانوا دائمًا يوشكون أن يموتوا جوعًا، فإن أشكالهم الهزيلة السوداء، ذات التقاطيع غير المتجانسة، ووجوههم التي تعلن بغباوتهم، وعاداتهم القبيحة التي تبعث على الاشمئزاز، لتصور حظهم العاثر الذي حكم عليهم بأن يكونوا أحط شأنًا من الحيوان الذي يعيش بين الرجال الذين ينتمون إلى طبقتهم الاجتماعية. ومع ذلك فإن حالة خدام الاسطبلات النشيطين، الذين يختارون من بين هؤلاء، والذين يحصلون على أجور طيبة، ويعيشون عيشة حسنة في كنف سادة من الأوروبيين، لتدل على أنهم بعيدون عن أن تكون حالتهم عاجزة عن التحسن. وأن تغيير الدين هو الطريق الوحيد الممهد أمامهم للخلاص؛ وليس ثمة ما يدعو لأن يكونوا مخلصين لعقيدتهم الدينية التي كانوا يدينون بها».

---

[١١٥] Gazetteer of the Province of Oudh. Vol. i. p. xix.

[١١٦] Gazetteer of the Province of Oudh. Vol. i. pp. xxiii-xxiv..

[§] ينقسم سكان الهند إلى خمس طبقات: البراهمة وهم طبقة العلماء ورجال الدين؛ والشتري وهم الجند؛ ويس أو يس، وهم التجار ورجال الأعمال؛ وشودر، وهم الطبقة الدنيا؛ وجندال، وهم لا يفترقون عن الحيوانات. ولا يختلط بعض أفراد هذه الطبقات ببعض بحال من الأحوال.

وإن عدم وجود التعصب الطائفي، ليكون القوة الحقيقية للإسلام في الهند، ويمكن له من أن يجذب إليه عددًا كبيرًا جدًا من الهندوكية.

ولكي نتم ما رسمناه من الكلام على الإسلام في الهند، لا يزال لدينا بعض أخبار نوردها عن انتشار هذا الدين في قشمير، ومنها وراء حدود الهند إلى بلاد التبت. ومن بين جميع المقاطعات والولايات في الهند (بخلاف بلاد السند). تشتمل قشمير على أكبر عدد من المسلمين (أي بنسبة ٧٠%) بالنسبة إلى جميع السكان. بيد أن الحقائق التاريخية التي تفسر وجود عدد كبير جدًا من المسلمين في هذه الولاية، والتي ترجع كلها تقريبًا إلى أصل تبتي أو هندي، قليلة جدًا لسوء الحظ.

ولكن جميع الشواهد تهدينا إلى أن نعزو هذه الحقائق بوجه عام إلى حركة الدعاية المتصلة التي بدأها وقام على تنفيذها الفقراء والدراويش، وكان من بينهم بعض دعاة الإسماعيلية الذين أرسلوا من قلعة ألموت [١١٧]. (§)

ومن الصعب أن نقول متى بدأ التأثير الذي صبغ البلاد بصبغة إسلامية لأول مرة. وقد قيل إن أول ملوك قشمير من المسلمين، وهو صدر الدين [١١٨]، يدين بدخوله في الإسلام إلى أحد الدراويش، ويسمي بليل شاه، وذلك في مستهل القَرن الرابع عشر الميلادي. وكان هذا الولي هو المعلم الديني الوحيد الذي استطاع أن يحقق أمنيته في الوصول إلى حقيقة الدين، وذلك عندما تطلع إلى نوع من العقائد يكون أكثر قبولًا لديه من عقيدته الهندوكية، التي لم يكن راضيًا عنها مقتنعًا بها.

نهاية هذا القرن نفسه (١٣٨٨م) لقي تقدم الإسلام أعظم رواج بقدوم سيد علي الهمذاني أحد الفارين من مدينة همذان مسقط رأسه في فارس، حيث كان قد أثار سخط تيمور. وقد صحبه سبعمائة سيد، وأسسوا أماكن للتنسك في جميع أرجاء البلاد، ويظهر أنه كان من تأثيرهم أن تحقق قبول الناس لهذا الدين الجديد. على أنه يظهر أن قدومهم قد

---

[١١٧] Khojà Vrttànt, p. 141

(§) أسسها الحسن الصباح على مقربة من بحر قزوين في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

[١١٨] وتقول رواية أخرى إن اسمه شمس الدين. راجع محمد حيدر ٤٣٣ (هامش رقم٢).

أثار كذلك روحًا قويًا من التعصب الديني، إذ أن السلطان سكندر Sikandar (١٣٩٣–١٤١٧م) نال اسم بت شكن Batshikan لتخريبه الأصنام والمعاهد الهندوكية، وقام وزيره الأول، وكان هندوكيًا قد تحول إلى الإسلام، باضطهاد عنيف في وجه منتحلي القديمة، ولكن بعد وفاته أصبح التسامح الديني قاعدة جرت عليها المملكة [١١٩].

وحول نهاية القرن الخامس عشر قدم من بلاد العراق أحد دعاة المذهب الشيعي، ويسمى مير شمس الدين، واستطاع بمعونة تلاميذه ومريديه أن يظفر بعدد كبير من الذين دخلوا في الإسلام في قشمير.

ولما أصبحت قشمير في عهد أكبر إحدى ولايات إمبراطورة المغول، قوي النفوذ الإسلامي بطبيعة الحال، وقدم كثير من رجال العلم إلى هذه البلاد. وفي عهد أورنج زيب، تحول راجا جاكشتوار، أحد رؤساء راجه بوت إلى الإسلام بفضل الكرامات التي أظهرها شخص يدعى سيد شاه فريد الدين. ويظهر أن تحوله إلى الإسلام قد تبعه دخول السواد الأعظم من رعاياه في هذا الدين. ولا نزال نرى على طول الطريق التي أحرز فيها أباطرة المغول نجاحًا في فتوحهم في بلاد قشمير راجوات من ذراري الراجه بوت من المسلمين[١].

وإلى شمال قشمير والشمال الشرقي منها، نرى خليطًا من جنس التبت يقطنون ولايتي بلتستان Baltistan ولداخ Ladakh، وقد استقر الإسلام بينهم قرونًا عدة، ولكن تاريخ دخوله في هذه البلاد والطريقة التي دخل بها غير معروفة لدينا. ويروي مسلمو بلتستان قصة أخوة أربعة قدموا من خراسان، ونهضوا بالدين، بيد أنه يظهر أنه ليس هناك رواية تتعلق بأقدم الدعاة إلى الإسلام في هذه البلاد[٢]. ويظهر أن الإسلام كان حتى منتصف القرن التاسع عشر يحرز تقدمًا، ولكن التشجيع الذي قدمه مهراجه رنبير سنكهه Maharaja Ranbir Singh لأتباع الديانة البوذية قد وقف في سبيل هذا الاتجاه.

---

[١١٩] Frishtah, vol. iv. Pp. 464, 460.

(١) F. Drew: The Jummoo and Kashmir Territories. Pp. 58, 155. (London, 1875)

(٢) Drew, op. cit. p. 359.

وفي لداخ عدد من مولدي الطبقات يطلق عليهم اسم أرغونيون Arghons[١]، من أمهات تبتيات وآباه مسلمين، من التجار الذين قدموا إلى ليه Leh وحثوا نساء التبت اللاتي تزوجوا منهن على قبول الإسلام. وهؤلاء الأرغونيون مسلمون جميعًا؛ وهم، كآبائهم يتزوجون من نساء التبيت. ويقال إن عددهم يزداد بسرعة أكثر من العنصر التبتي الخالص[٢]. كذلك نقل تجار قشمير الإسلام إلى بلاد التبت الأصلية، ونجد أمثال هؤلاء التجار يستوطنون جميع المدن الرئيسة في التبت، ويتزوجون من نساء تبتيات، وكن في الغالب يعتقدن دين أزواجهن.

ويقال الآن أن هناك عددًا كبيرًا يبلغ ألفي أسرة مسلمة في لهاسه Lhasa[٣]. وكذلك شق الإسلام طريقة من التبت من إمارة يونان[٤]، وفي سو – جنك Su-ching على حدود ولاية زي– شوان Sze-chwan والتبت، دخل في الإسلام فريق من بين سكان بلاد التبت[٥]. ويقال أيضًا إن المؤثرات الإسلامية قد أتت من فارس[٦]، ومن تركستان[٧].

---

(١) انظر ما ورد عن هذه الكلمة في Yule: Marco-Polo, Vol. i. p. 290.

(٢) Ahmad Shah: Four Years in Tibet, pp. 45, 74 (Benares, 1906)

(٣) Broomhall, p. 206. وقد أذاع تو ون سو Tu Wen-Siu، زعيم ثورة بانتهي Panthey من سنة ١٨٥٦ إلى سنة ١٨٧٣، وكان السلطان الفعلي على نصف ولاية يونان Yunnan ست عشرة سنة، منشورًا في لهاسة نفسها في بداية هذه الثورة ليكتسب إمدادات من المسلمين (Id. P. 132).

(٤) Mission d,Ollone, pp. 207, 226, 233.

(٥) Broomhall, p. 206.

(٦) A. Bastian: Die Geschichte der Indo-chinen, p. 159. (Leipzig, 1866.)

(٧) R. du M. M., tome I, p. 275 (1907)